

الجزء الثانى

إذا كان موسى مصرياً... .

✱ ✱ ✱

حاولت فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن أدعم بحجة جديدة فكرة أن الإنسان موسى، محرر الشعب اليهودى ومانحه الشريعة الموسوية، لم يكن يهودياً بل مصرياً. ولقد لوحظ من زمن بعيد أن اسمه «موسى» مشتق من اللغة المصرية، ولو أنه شئ لم يُستسخ. ولقد أضفتُ إلى هذه هذه الواقعة فكرة أخرى وهى أن أسطورة تعريضه للماء استلزمت أن نقول إن موسى كان مصرياً، ولكن الشعب اليهودى كان فى حاجة إلى أن يجعل منه يهودياً. وفى نهاية بحثى قلت إن من الممكن استخلاص نتائج هامة وبعيدة المدى من فكرة أن موسى كان مصرياً، ولكنى لم أكن مستعداً لإعلان هذه النتائج على الملأ، مادامت أنها نتائج تقوم على إمكانات نفسية ويعوزها الدليل الموضوعى. وكلما زادت أهمية هذه المكنات المستخلصة، كلما زاد حذى إزاء إعلانها على العالم وتعريضها للنقد دون أن يكون لها أساس مضمون - مثل النُصب الذى يكون من الحديد ولكن أقدامه تكون من الطين. ولا يوجد ممكن مهما كان إغراقه، يمكن أن يحمينا من إتيان الخطأ، حتى ولو كانت كل أجزاء المشكلة تبدو متلائمة مع بعضها كقطع لغز الصور المقطعة. وينبغى أن نتذكر أن الممكن ليس من الضرورى أن يكون هو الحقيقة، وأن الحقيقة ليس من الضرورى أن تكون دائماً ممكنة. وأخيراً فليس من المستحب أن أدرج ضمن المدرسين والتالوديين^(١) الذين يرضيهم أن يمارسوا براعتهم دون أن يعبأوا بمدى ماقد تكون عليه نتائجهم من بُعد عن الحقيقة.

ورغم هذه الشكوك التى ترين على كاهلى اليوم، كما كانت فى الماضى، فإنه من بين

١- التالوديون نسبة إلى التالود، وهو الكتاب الثانى فى الأهمية بالنسبة لليهود بعد التوراة. والتالود كلمة عبرية معناها التعليم، فهو كتاب التعليم، وهو يضم التراث الذى وضعه أبحار اليهود الذين يسمون الربانيين تفسيراً لشريعة النبى موسى، وينقسم إلى قسمين : الميشنا، وهو التشريع الذى يستقى من التراث الشفاهى، والجيمارا، وهو التعليق على الميشنا. (الحفنى).

صراعات دوافعى خرج قرارى بأن أتبع بحثى الأول بهذا البحث الجديد، ولكنى أؤكد مرة أخرى أنه ليس إلا جزءاً من كل، وأنه ليس أهم جزء.

✱ ✱ ✱

-١-

فإذا كان موسى، إذن، مصرياً^(١) فإن أول نتيجة نستخلصها من هذه الفكرة هى بمثابة لغز جديد يصعب الإجابة عليه. وعندما يستعد شعب إحدى القبائل^(٢) للقيام بعمل عظيم، فمن المتوقع أن يجعل أحد أفراد هذا الشعب من نفسه زعيماً له، أو أن يختاروه لهذا الدور. ولكن ليس من السهل أن نتكهن بما يمكن أن يفرض مصرياً مرموقاً ربما كان أميراً أو كاهناً أو موظفاً كبيراً، على أن يضع نفسه على رأس حشد من المهاجرين منحتلى الثقافة، وعلى أن يترك بلده بصحبتهم. وإن ما هو معروف عن المصريين من احتقار للأغراب^(٣) يجعل مثل هذا العمل من جانب موسى شيئاً غير ممكن، وإنى لأميل حقيقة إلى الظن بأن هذا هو السبب الذى حدا بالمؤرخين، وحتى بهؤلاء الذين أقروا بأن اسم موسى هو اسم مصرى ونسبوا إليه كل حكمة مصر، إلى عدم الترحيب بفكرة أن موسى كان مصرياً، حتى ولو كانت الفكرة ممكنة بشكل واضح.

وتتبع هذه العقبة الأولى عقبة ثانية، فنحن لا ينبغي أن ننسى أن موسى لم يكن فقط الزعيم السياسى لليهود المقيمين فى مصر، وإنما كان مُشَرَّعَهُم ومعلمهم والذى أجبرهم على اتخاذ ديانة جديدة مازالت تسمى حتى اليوم بالديانة الموسوية، نسبة إليه. ولكن هل من الممكن لشخص بمفرده أن يخلق ديانة جديدة بهذه السهولة؟ وعندما يرغب شخص ما

١- يرد فرويد نفسه على ادعائه بمصرية موسى فيقدم هذا السؤال الذى يتضمن إجابة سلبية، وهو نفسه لا يستطيع أن يجيب على السؤال، ولكن تضمينه للسؤال هو تكتيك متبع ومألوف لإثارة الشك ولبلبلة القراء والإيهام بإجابة معينة لا يستطيع القارئ غير الواعى إزائها إلا التسليم ببعض ما يثيره فرويد إن لم يكن كله. وهناك احتمال لا يورده فرويد نفسه وهو أن يكون اسم موسى اسماً مألوفاً بين يهود مصر وبين المصريين أنفسهم كما نعرف ذلك من تاريخ اليهود فى كل البلاد التى عاشوا فيها، أو أن يكون الاسم نفسه اسماً سامياً شائعاً مشتركاً فى مصر القديمة وبين اليهود. (الحفنى)

٢- ولانمنى بقول قبيلة أى تلميح لعدد اليهود الذين خرجوا من مصر. (فرويد)

٣- وهى ملاحظة غريبة من فرويد لأندرى من أين أتى بها، إذ أن مصر كانت على مر التاريخ معبراً وملجأ لكل شعوب البحر الأبيض حتى لقد قرنها الله تعالى فى القرآن الكريم بالأمن والأمان فقال وهو صدق القائلين «ادخلوا مصر إن شاء الله آمين» (يوسف ٩٦).

(الحفنى)

فى التأثير على ديانة شخص آخر، أليس أكثر الأشياء طبيعية هو دفعه إلى تغيير ديانتة واتخاذ ديانة الشخص الأول؟ وكان الشعب اليهودى فى مصر يؤمن يقيناً بدين معين، وإذا كان موسى الذى أعطاهم ديانة جديدة مصرىا، فالنتيجة المستخلصة من ذلك إذاً لا يمكن أن تكون مرفوضة، وهى أن الديانة الجديدة كانت ديانة مصرىة.

ويواجه هذا الاحتمال عقبة، وهى التعارض الحاد بين الديانة اليهودية المنسوبة إلى موسى وبين الديانات المصرىة، فالديانة اليهودية ديانة موحدة متزمتة متباهية، ولا يوجد بها سوى إله واحد مفرد تام القدرة، لايدانيه أحد، ولايقوى على اجتلاء وجهه أحد، ولاينبغى لأحد أن يخط له صورة، أو حتى أن يلفظ اسمه. أما فى الديانات المصرىة، فهناك من ناحية أخرى عدد مدهل من المعبودات تختلف أهمياتها وأصالتها، وبعضها تشخيص للقوى الطبيعية الكبرى، مثل السماء والأرض والشمس والقمر، ثم نجد تجريداً مثل «ماعت»^(١) Maat « (ويُقصد به العدالة والحقيقة)، أو مخلوقاً شائهاً مثل القزم Bes. ومعظم هذه الآلهة محلية من أيام تقسيم الأرض بين الأقاليم المختلفة، ولها أشكال الحيوانات، كما لو كانت لم تتغلب بعد على أصولها من أيام عبادة الحيوانات الطوطمية^(٢). وليست هناك

١- يقول الدكتور عبد المنعم أبو بكر (كتاب أختاتون ص ٣٨) أن المصرىين يقصدون من تعبير ماعت «الحقيقة، الصدق، العدالة»، وأن أختاتون كان يقول إنه يعيش على الماعت، ولذلك جعل اسمه «العائش على الماعت»، وسمى عاصمته الجديدة «مقر الماعت ...» (الحقنى).

٢- الطوطم هو حيوان أو نبات أو أى شئ آخر مقدس لدى جماعة أو قبيلة أو جنس من الشعوب البدائية ويرمز للجماعة ويحميها، وتعامله بطرق مختلفة طبقاً للعادة والتراث، وتطور حوله طبقوسها الدينية وشرائعها؛ والطوطمية هى نظام القانون والعادات التى تدور حول الطوطم بوصفها قوانين وشرائع اجتماعية ودينية. والطوطمية أقدم ديانة عرفها تاريخ الإنسانية، وهى ليست عبادة الحيوان أو النبات، ولكن الطوطمية تختلف عن عبادة الحيوانات فى أن القبيلة التى تدين بالطوطمية ترى أنها والطوطم من أصل واحد، فمثلا القبيلة التى طوطمها المقدس هو الذئب، ترى أنها والذئب تنحدر من أب واحد. ومن أكبر الفلاسفة الذين كتبوا فى الطوطمية العلامة الفرنسى دور كايم. والاسم نفسه Totemism شائع فى اللغات الأوروبية كلها، ونجده فى اللغتين الفرنسىة والإنجليزية، وأول من استخدمه مؤلف إنجليزى مغمور إسمه جون لونج Long، وكان يعمل ترجمانا فى شركة الهند، فى كتاب له بعنوان «أسفار ورحلات لترجمان هندى "Voyages and Travels of an Indian Interpreter" سنة ١٧٩١، ويعدّه توات الكتب التى تستخدم هذا التعبير الذى أخذه فرويد ووضع عنه وعن مدلولته كتابه «الطوطم والمحرم To-tem and Taboo». والجدير بالذكر أن أستاذنا الدكتور على عبد الواحد وافى يرى أن الترجمة الشائعة فى العربية للكلمة تكتب «الطوطمية»، مع أنها يجب أن تكتب «التوتمية»، كما يترجم الأستاذ الدكتور «التابو» بأنه نظام المحارم، أو نظام اللامساس الذى يحظر فيه على الأفراد قربان أو لمس أشياء معينة إلا فى ظروف خاصة ويطقوس مرسومة، وبعد اتخاذ كثير من وسائل الحيطة والحذر : (كتاب الطوطمية، سلسلة إقرأ - دار المعارف العدد ١٩٤).

(الحقنى)

اختلافات فيما بينها، وتتميز عن بعضها البعض تمييزاً طفيفاً بالوظائف الخاصة التي تنسب إلى بعضها. وتحكى الأناشيد التي تتلى في مدح هذه الآلهة نفس الشيء عن كل منها، وتماثل بين بعضها البعض نون أن يثير ذلك أية شكوك حولها، وبطريقة تבלبلنا بشكل يائس. وتترابط أسماء المعبودات ببعضها البعض لدرجة أن بعضها يدنو في الدرجة، فيكنى باسم آخر، ولذلك نجد أنه في أحسن فترة من حكم «الإمبراطورية الجديدة»^(١) سمي الإله الأكبر لمدينة طيبة «أمون - رع»^(٢)، وهذا اسم تركيبي، الجزء الأول منه يعنى إله المدينة الذى له رأس كبش، أما اسم رع فهو إله الشمس الذى عبده مدينة أون وله رأس صقر. وكانت التعاويذ والصيغ السحرية والطقوس تسيطر على صلوات هذه الآلهة، مثلما كانت تسيطر على الحياة اليومية للمصريين.

١- الإمبراطورية الجديدة بدأها الملك تحوتمس الثالث حوالى سنة ١٤٧٠ ق.م بعدد من الحملات فى آسيا، وكان هدف هذه الحملات موجهاً إلى مدينة قادش على نهر العاصى، وهى التى كانت تزعم المعارضة على المصريين، وذلك أن المصريين بعد طرد الهكسوس من مصر وجدوا أن من واجبههم مطاردتهم مطاردة يملئها حب الانتقام الذى ظل ينمو فى نفوسهم لأكثر من قرن من الزمان. وكان لقادش معنى خاص لديهم، لأن على مقربة منها كان تل سفينة نوح وفيه عسكر الهكسوس، وعلى بعد ٣٥ ميلاً فقط كانت توجد مدينة قتلنا وفيها أكبر تلك المعسكرات جميعاً. ولايعنى ذلك أن مصر لم يكن لها إمبراطوريات من قبل، فقبل تحوتمس كان لمصر إمبراطورية إفريقية امتدت إلى النوبة والسودان أو بلاد كوش. (عن جون ولسون - الحضارة المصرية). (الحفنى)

٢- أمون رع أحد آلهة مصر القديمة، وسيد الكرنك، ومنافس أتون، ويظهر كإله فى مصر يظهر الأسرة الطيبية، ومعنى أمون «المختفى»، وهو إله الهواء الذى لايرى والذى يستطيع أن يكون فى كل مكان، ولهذا سهل على هذا الإله أن يكون إلهاً للإمبراطورية الجديدة، وكان إلهاً عالمياً عندما ذهب إلى الخارج عند اتساع الإمبراطورية، وتشامخ معبده إلى جانب قصر فرعون، وتتنافس كبير كهنته على السلطة مع قائد الجيش والوزير، وفى الختام مع الملك نفسه. وأمون رع هو إله من آلهة الشمس، ومصر عرفت عبادة الشمس منذ الأزل، وكان للشمس مظاهر متعددة كان كل منها إلهاً مستقلاً، وأصبح رع إله هليوبولس هو إله الشمس الذى غطى على ماعده، فاستحوذ على السلطة فى هليوبولس من أتوم الإله الخالق الذى وجد نفسه مع الإله الجديد وصار يسمى «رع أتوم». وظل كل من أمون ودع إلهاً مستقلاً، أحدهما للهواء والآخر للشمس، بالرغم من أنهما اتحدا تحت اسم أمون رع الذى أصبح الإله الأعظم للأمم، ولم ينافسه على السلطة إلا ديانة أتون التوحيدية، وليلاحظ أن أمون كان إلهاً توحيدياً كذلك، وفى البردية المعروفة باسم بردية بولاق ١٧ التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسرة ١٨ يذكر اسم أمون بانه «الواحد المنفرد الذى لاكفء له». (الحفنى)

وربما كانت بعض هذه الاختلافات نابعة من التعارض فى المبدأ بين الوجدانية الصارمة وبين تعدد الآلهة تعدداً لانهائياً، وبعضها الآخر نتائج لاختلاف فى المستوى الفكرى، فديانة قد تقرب جداً من الديانات البدائية، وديانة أخرى قد تحلق فى سوامق التجريد المتسامى. وربما كانت هاتان السمتان هما اللتان تعطيان أحياناً الإحساس بأن التعارض بين الديانة الموسوية وبين الديانة المصرية هو تعارض مقصود واستهدف إبرازه، فمثلاً عندما تنهى الموسوية عن إتيان أى نوع من أعمال السحر والشعوذة، فذلك لأن الديانة المصرية تبيحها ويروج فيها السحر رواجاً عظيماً؛ أو عندما يقابل الرغبة النهمه لدى المصرى فى أن يصنع تماثيل لآلهته من الصلصال والحجر والمعادن، هذه الرغبة التى تدين لها متاحفنا كثيراً، يقابلها فى الموسوية النهى نهياً مطلقاً عن تصوير أى كائن حى أو متخيل.

ويتبقى اختلاف آخر بين الديانتين لم تمسسه التفسيرات التى تقدمت، فلم يوجد شعب آخر من الشعوب القديمة، كالشعب المصرى، بذل كثيراً لينكر الموت، وأعد أيما إعداد لحياة بعد الحياة، واتفاقاً مع هذا فإن إله الموت «أوزيريس»^(١)، حاكم هذا العالم الآخر، كان أكثر الآلهة المصرية جميعها شعبية^(٢) وأصالة لاجدال فيهما.

١- أوزيريس : كانت فى مصر القديمة نظريتان دينيتان، أحدهما مضمونها عبادة إله الشمس والديانات الأخرى المتفرعة منها، والثانية عبادة أوزيريس، وكان هناك نزاع بين النظريتين، ومن المحتمل أن هذا النزاع بدأ من أقدم العصور وظل مستمراً فيما بعد، ونرى أثر هذا النزاع فى التصادم بين الديانتين، بخصوص المتوفى، فالأولى تختص بعلاقة المتوفى بالشمس التى تغرب لتستريح ثم تشرق فى بهائها صبيحة اليوم التالى، والثانية هى علاقة المتوفى بإلهه أوزيريس وهو إله الموتى لانعرف حقيقة أصله. وسواء أكان أوزيريس فى الأصل ملكاً عاش وحكم بين الناس، ثم مات وأصبح ملكاً للموتى وإلهاً للأرض التى يدفن فيها الموتى، أو أنه كان إلهاً للنيل ومات ثم ارتد إلى الحياة، فإن ذلك أمر لا يمكننا أن نعرفه على وجه اليقين. ولكن الذى نعرفه تماماً أنه عند بدء الأسرات أصبح هو الإله الذى مات ثم رد إلى الحياة ليكون الحاكم الميت والحاكم على الأموات. وعلى ذلك أصبح هو الملك المتوفى أوزيريس، كما أصبح ابنه الذى جلس على العرش الملك «حورس»، وهو الابن الذى يقوم بما يجب عليه نحو أبيه، والذى قام بعمل مايلزم ليظل أبوه حياً فى الحياة الأخرى. وعلى مر الأيام ازداد شأن ديانة أوزيريس وغطت على العقيدة القائلة بأن المتوفى يذهب فى صحبة الشمس، (جون ويلسون - الحضارة المصرية). (الحقنى)

٢- ويرى البعض أن النزاع بين الإله رع وبين الإله أوزيريس هو نزاع اجتماعى اقتصادى بين الطبقات، فالإله رع هو إله الملك والطبقة المالكة، والإله أوزيريس هو إله الشعب الفقير، والنزاع الطبقي فى مصر القديمة يصوره هذا التناقض بين إلهي كل جانب. ومع ذلك فإن ديانة أوزيريس ظهرت فى الأصل كديانة للملك، ولكن التطور فى مصر نحو الديمقراطية أكسب ديانة أوزيريس محبة فى نفوس الشعب، لأنها ضمنت السعادة المستقبلية لكثير عدد من الشعب والانتقال إلى الحياة الأخرى ليصبح الناس فى صحبة الإله أوزيريس. أما ديانة رع فلم تكن تقول بالخلود إلا للملك وحده. فالملك هو الوحيد الذى له الحق فى الخلود فى الحياة الأخرى ومصاحبة الإله رع (الشمس) فى غواته وروحاته. وفى الوقت الذى اتجهت فيه الأوزيريسية إلى الشعب، نرى الملكية مازال تفسرها نفس التفسير، فتقول إن الملك هو نفسه الوحيد الذى من حقه أن يصبح أوزيريس بعد الموت. (الحقنى)

أما الديانة اليهودية المبكرة فإنها عكس ذلك لم تتحدث عن الخلود إطلاقاً، ولم يذكر فيها فى أى مكان إمكان وجود حياة بعد الموت، وهو أمر تزيد أهميته لأن التجربة التى تلت ذلك (أى الديانات الأخرى اللاحقة) قد أثبتت أن الاعتقاد فى وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة يمكن أن يتوافق جداً مع الديانة التوحيدية.

وكنتم أمل أن تبرهن الفكرة التى تقول بأن موسى كان مصرياً، أنها فكرة من شأنها أن تكشف وتنبه من نواحٍ مختلفة كثيرة، ولكن أول ما استخلصناه من هذه الفكرة - وهو أن الديانة الجديدة التى أعطاها موسى لليهود كانت ديانتته هو، أى الديانة المصرية - قد تعترت فوق الاختلاف، بل التعارض البارز بين الديانتين.

❖ ❖ ❖

- ٢ -

تثير واقعة غريبة فى تاريخ الديانة المصرية - وهى واقعة اعترفوا بها وامتحوها فى وقت متأخر نوعاً ما - وجهة نظر أخرى ماتزال ممكنة، وهى أن الديانة التى أعطاها موسى إلى الشعب اليهودى هى ديانتته، أى ديانة من الديانات المصرية وليست كل الديانة المصرية^(١).

ففى الأسرة الثامنة عشرة^(٢) المجيدة، عندما صارت مصر لأول مرة دولة عالمية، ارتقى العرش فرعون شاب نحو سنة ١٣٧٥ ق.م، أسمى نفسه فى أول الأمر أمنحوتب الرابع مثل

١- نلاحظ أن فرويد دائم الخلط، فهو لا يتصور ان يكون مصدر الديانات كلها هو الله، مع أن هناك مدرستين إحداهما ترجع الدين لله، والرسول وسطاء بينه وبين البشر، والأخرى وهى مدرسة إلحادية تعد الدين مظهراً فكرياً لوجدان وتفكير الأمم، ولكن ينبغى أن نذكر دائماً أن ظاهرة الدين والتدين التى تفصح عن نفسها بهذا التكرار فى تاريخ البشرية، هى خير دليل على وجود مصدر خارج الإنسان هو الموحى بالدين، ومصدر داخل الإنسان هو متلقى الوحي به. وليس تعاقب الديانات وظهورها بين شعوب شتى إلا لاختلاف عصور التبشير بها، ثم بحسب الدرجة الحضارية التى بلغها الشعب المبتشر بالدين. (الحقنى)

٢- الأسرة الثامنة عشرة من ١٥٧٠ إلى ١٣٠٥ ق.م، وملوكها أحمس الأول (أحموسى) من ١٥٧٠ إلى ١٥٤٥، وأمنحوتب الأول من ١٥٤٥ إلى ١٥٢٥، وتحوتمس الأول (تحوتوموسى) من ١٥٢٥ إلى ١٤٩٥، وتحوتمس الثانى من ١٤٩٥ إلى ١٤٩٠، وتحوتمس الثالث من ١٤٩٠ إلى ١٤٣٦، وحتشبسوت من ١٤٨٦ إلى ١٤٦٨، ومن ملوكها كذلك ملوك عصر الإمبراطورية، وهم أمنحوتب الثانى ١٤٢٩ - ١٤٠٦، وتحوتمس الرابع ١٤٠٦ - ١٣٩٨، وأمنحوتب الثالث ١٣٩٨ - ١٣٦١، وأمنحوتب الرابع (أخناتون) ١٣٦٩ - ١٣٥٣، وسمنخكارع ١٣٥٥ - ١٣٥٢، وتوت عنخ أتون (توت عنخ آمون) ١٣٥٢ - ١٣٤٤، وأيى ١٣٤٤ - ١٣٤٢، وحرر محب ١٣٤٢ - ١٣٠٣. (الحقنى)

أبيه أمنحوتب الثالث^(١)، ولكنه غير اسمه فيما بعد - وغير أشياء أخرى كذلك. وآل هذا الملك على نفسه أن يفرض على رعاياه ديانة جديدة تناقض تقاليدهم وكل ما اعتابوه. وكانت ديانة توحيدية صارمة، وأول محاولة من نوعها في تاريخ العالم على قدر ما نعلم^(٢). وولد بالتبعية مع الإيمان بإله واحد، التسامح الدينى الذى كان غريباً على العالم القديم قبل مجئ هذه الديانة التوحيدية، واستمر بعد مجيئها لزمان طويل. ولكن حكم أمنحوتب الرابع دام لسبع عشرة سنة فقط، وبعد وفاته سنة ١٣٥٨ ق.م مباشرة، وزالت الديانة الجديدة وصودرت ذكرى الملك الكافر. ونحن نستمد المعرفة القليلة التى نملكها عنه من آثار عاصمته الجديدة التى بناها ووهبها لإلهه، ومن الكتابات المحفورة على صخور مقابرها. وكل ما يمكن أن نعلمه عن هذا الشخص العظيم والفريد حقيقة لجديرة بأعظم الأهمية^(٣).

إن كل شئ جديد لا بد أن تكون له جنور فيما كان من قبل. ويمكن ببعض اليقين تتبع نشأة التوحيد المصرى إلى زمن بعيد بعض الشئ^(٤). وفى مدرسة الكهنة فى معبد الشمس فى أون (هليوبوليس) كان الاتجاه لبعض الوقت يطور فكرة إله عالمى ويبرز نواحيه الأخلاقية. وكانت ماعت^(٥) Maat إلهة الحق والنظام والعدالة، ابنة إله الشمس رع. وكانت

١- أمنحوتب الثالث وهو ابن تحتموس الرابع من زوجته الأجنبية ابنة ارتاتاما ملك ميتانى، وكان هو وأبوه من المحاربين الفاتحين، وتزوج أمنحوتب الثالث زوجة مصرية من عامة الشعب وأنجب أمنحوتب الرابع، وتزوج أمنحوتب الرابع من أخته الرشيدة نفرتيتى وأشركه أبوه معه فى الحكم. وأنجب أمنحوتب الرابع ونفرتيتى ست بنات، واعتنق ديانة أتون، واحتفل وهو فى سنه الثلاثين بعيد ميلاده وميلاد ديانة أتون، الأمر الذى يدل على أن هذه الديانة كان عمرها وقتذاك ثلاثين سنة، وغير اسمه بعد وفاة أبيه من أمنحوتب، ويعنى أمون راض (عن هذا الشخص) إلى اسم أختاتون ومعناه إما «المفيد لأتون» أو «ليسعد أتون»، وقد اختفى أختاتون من مسرح الحكم بطريقة مشبوهة لانعرف تفاصيلها، وبعد خلاف حاد مع زوجته، وخلفه على الحكم أخوه الأصغر سمنخكارع. (الحفنى)

٢- يبيو أن فرويد قد نسى أن النبى يوسف كان فى مصر قبل موسى وقبل أختاتون وأنه كان يدعو لله الواحد. يقول القرآن «ذلکما مما علمنى ربى إنى ترکت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة کافرون، واتبعت ملة أبائى. ابراهيم وإسحق ويعقوب، ماکان لنا أن نشرك بالله من شئ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشکرون. یاصحابى السجن أریاب متفوقون خیر أم الله الواحد القهار (یوسف ٣٩). ویؤكد القرآن الکريم أن التوحيد ظل بمصر بعد یوسف، فلما بشر موسى به وفرعون تصدى للمصريين رجل من آل فرعون يؤمن بالله وذكروهم برسالة النبى یوسف إليهم. یقول: «ولقد جاکم یوسف من قبل بالبینات فمازلتم فى شک مما جاکم به حتى إذا هلك قلتم لن یبعث الله من بعده رسولا» (غافر ٢٤) وإذن فقول فرويد «على قدر ما نعلم» إقرار بأنه لا یعلم أن التوحيد رسالة الأنبياء منذ كانت النبوة، وكان فى مصر قبل أختاتون من بقايا دعوة النبى یوسف عليه السلام. (الحفنى)

٣- أسماء بريستيد «أول فرد فى التاريخ البشرى». (فرويد)

٤- إن ما ذكره هنا یترسم خطى کتابى بريستيد «تاريخ مصر» (١٩٠٦) و«فجر الضمير» (١٩٣٤)، والفصول المقابلة من المجلد الثانى من «التاريخ القديم» نشرت كمبريدج. (فرويد)

٥- ماعت، أو الدعوة إلى ماعت، أى الحق، هى دعوة تختص بها ثورة العمارنة، وكان أختاتون صاحب الدعوة وإلهه أتون يمشان على الحق. وكان شعار الدعوة إلى الثورة هو كلمة ماعت التى يجب أن تترجمها هنا إلى الحقيقة، بدلا من كلمة العدل أو الحق، فقد كانت الصراحة العائلية، واتباع الأسلوب الطبيعى فى الفن، وصيغ اللغة بالصيغة العامية، كانت كلها تطبيقا للحقيقة. ونعت أختاتون نفسه فى أسماؤه الرسمية بأنه «الذى يعيش على الحقيقة»، كأنما هى الطعام الذى يمد به بالحياة، وأصبح الاسم الرسمى لإلهه أتون هو «الراضى بالحقيقة». (الحفنى)

عبادة إله الشمس فى صعود منذ أمنحوتب الثالث الذى جاء قبل أمنحوتب الرابع وكان والده. ومن المحتمل أنها كانت تعارض عبادة آمون إله طيبة الذى أصبحت ديانتته هى الديانة السائدة. واكتشف الملك من جديد أن إله الشمس كان له اسم قديم هو أتون^(١) أو أتوم، ووجد الملك الشاب فى ديانة أتون حركة لم يكن هناك ثمة حاجة لخلقها، ولكنها كانت موجودة ويمكن أن ينضم إليها.

وكانت الظروف السياسية فى مصر نحو ذلك الوقت قد بدأت تفرض لنفسها نفوذاً دائماً على الديانة المصرية. وكانت مصر عن طريق سيف الفاتح العظيم تحتتمس الثالث^(٢) قد صارت دولة عالمية، وأضيفت إلى الإمبراطورية المصرية النوبة فى الجنوب، وفلسطين وسوريا وجزءاً من بلاد ما بين النهرين فى الشمال. وانعكست هذه الإمبريالية فى الديانة بحيث صارت عالمية وتوحيدية. ومادام نفوذ فرعون قد تجاوز الآن مصر إلى النوبة وسوريا فإن الفكرة الإلهية كان عليها أن تتخلى عن تحددها القومى، وكان على إله المصريين الجديد أن يصبح كفرعون - السيد الفريد غير المحدود - سيد العالم المعروف لدى المصريين. وعلاوة على ذلك فإنه كان من الطبيعى، أنه كما أن الحدود قد اتسعت، فإن

١- أتون أو أتوم تعنى قرص الشمس، ولم يكن القرص ذاته إلهاً، ولكن المصريين ألوهه قبل أخناتون. وكان أمنحوتب الثالث والملكة تى يركبان سفينة فى بحيرة النزما اسمها «أتون يضى»، ويرجع تاليه أتون إلى عصر تحوتمس الرابع. وكان لأتون معبد فى طيبة، وكان الإله أتون على علاقة ودية فى أول الأمر بإله آمون، ثم بدأ النزاع بين كهنتهما. وتوجد مفارقة لطيفة بين آمون وأتون، فمعنى اسم آمون المختبئ الذى لا يرى والقوة الشاملة لكل شئ بالرغم من أن اسمه المعروف كان على شكل إنسان، ويقع محرابه فى آخر المعبد وفى أكثر أشكاله ظلمة، وكان لا يمكن الوصول إليه إلا بعد طقوس محددة. أما أتون فقد كان قرص الشمس ذاته الواضح للعيان الذى لا يمكن حجبته عن أى إنسان، وكانت معابده مفتوحة للسماء حتى يمكن عبادته فى صراحة ووضوح. وكل صلة له بالشكل الإنسانى انحصرت فى أن الأشعة التى تتدلى من قرص الشمس تنتهى بأيدى تقدم العلامة الهيروغليفية الحياة إلى الملك وعائلته. ولا تذكر نصوص العمارة اسم أى إله آخر سوى الإله أتون، فالأثونية أول ديانة توحيدية فى العالم. (الحفنى)

٢- تحوتمس الثالث كان صغيراً جداً عندما ولى الحكم بعد أبيه وأمضى السنوات الإحدى والعشرين من حكمه مغموراً، لأن عمته وزوجة أبيه حتشبسوت كانت امرأة قديرة فاغتصبت الحكم منه، ولكنه ظهر فجأة ولأحد يدري ما إذا كان قد دبّر اغتيالها، وتولى الحكم حوالى أول فبراير سنة ١٤٦٨ ق.م. وبعد ٧٥ يوماً فقط جمع الجيش وسار نحو بلاد زاهى (فلسطين - سوريا) وهزم ملك قادش وأمير مجدو وأمير الميتانى، وبنى أسطولا، وعبر الفرات، وطارد أمير الميتانى، وفرض الجزية على بلاد آشور. (الحفنى)

مصر كان يجب أن تتقبل النفوذ الأجنبي وكانت بعض زوجات الملك أميرات أسيويات، ومن المحتمل أيضاً أن يكون التشجيع على التوحيد قد تسلسل من سوريا.

ولم ينكر منحوتب تبعيته لديانة الشمس فى أون وهو يمتدح فى النشيدىن الموجهىن لأتون - واللذىن حُفظا حتى عهدنا من خلال نقوش القبور الصخرىة، واللذىن من المحتمل أن يكونا من نظمه - يمتدح الشمس بوصفها الإله الخالق والحافظ لكل الأحياء داخل وخارج مصر، ويمتدحها بحمىة كالتى تتكرر فقط بعد ذلك بقرون كثرىة فى المزامىر التى تُنشد امتداحاً للإله اليهودى يهوا^(١). ولكنه لم يتوقف عند هذا السبق المدهش للمعرفة العلمىة عن أثر ضوء الشمس، فالذى لاشك فىه أنه ذهب أبعد من ذلك، وأنه عبد الشمس

١- كتب كثر من المؤرخىن مؤكدىن الصلة بين الأتونىة وبين الديانة اليهودىة نتيجة لعناصر كثرىة منها مثلاً التشابه القربى فى التفكير والتكوين بين نشيد أخناتون للإله أتون وبين المزمور ١٠٤ من مزامىر داود، وقد اختار بريستىد ثلاث فقرات لتوضىح هذا التشابه الكبىر، وقال بعض الباحثىن إن هذه التعمىرات المتشابهة تدل على الاشتقاق وأن واضع المزامىر العبرى كان يعرف نشيد الشمس:

المزمور ١٠٤	نشيد أتون
تجعل ظلمةً فيصير ليلاً	وعندما تغرب فى الأفق الغربى
.....	وتظلم الأرض كالموت ...
فيه يدب كل حيوان الوعر،	ويخرج كل أسد من عرينه ..
الأشبال تزجر لتخطف ...	وكل ما يزحف ويلدغ ..
تشرق الشمس، فتجتمع وفى مأويها	وعندما يطلع النهار، وتشرق الشمس فى الأفق ...
تريض،	تسوق الظلام بعيداً ...
فيستيقظ الإنسان ويخرج إلى عمله،	فيستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم
وإلى شغله إلى المساء.	وجميع من فى الكون يعملون عملهم
فما أعظم أعمالك يارب!	فما أكثر أعمالك !
كلها بحكمة صُنعتْ	وإنها لتُخفى عن نظر الإنسان
ملأته الأرض من غناك!	أيها الإله الأرحم، الذى لا مثيل له !
	لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك !

(الحضارة المصرىة ترجمة الدكتور أحمد فخرى) (الهنفى)

ليس بوصفها موضوعا ماديا، ولكن كرمز لكائن إلهي تتكشف طاقته في شعاعاتها^(١). ولكننا لانوفى الملك حقه إذا رأينا فيه أنه مجرد المؤمن بديانة أتون وحاميتها، وهى الديانة التى كانت موجودة قبله. وأمنحوتب كان أكثر من ذلك، فهو قد أضاف صفة استيعابية، استبعت كل الالهة الأخرى. وتتأكد هذه الصفة فى كلمات كثيره فى أحد أناشيده: «أنت أيها الإله الواحد، لإله إلا أنت^(٢)». ولايجب أن ننسى أنه لامتداح المذهب الجديد لايفى معرفة محتواه الإيجابى فقط، فجانبه السلبي على نفس الأهمية تقريبا : أهمية أن نعرف ماينبذه.

ومن الخطأ كذلك الافتراض أن الديانة الجديدة ظهرت إلى الحياة مستعدة ومعدة تماماً، كما ظهرت أثينا من جبهة الإله زيوس. ويبدو أن كل شئ يشير بالأحرى إلى أن الديانة الجديدة قد تقوت خلال حكم أمنحوتب لكى تحقق لنفسها وضوحاً ومثانة وعتواً وتسامياً. وربما يكون هذا التطور قد وقع تحت تأثير المعارضة العنيفة بين كهنة أمون الذين رفعت رموسهم ضد إصلاحات الملك. وفى السنة السادسة من حكم أمنحوتب نما هذا العداء لدرجة أن الملك غير اسمه، وصار الآن اسم الإله أمون الحامى جزءاً منه، وبدلاً من أمنحوتب أسمى نفسه أخناتون^(٣)، ولم يحذف من اسمه فقط اسم الإله المكروه، ولكن حذفه من كل النقوش، وحتى حيثما وجده فى اسم أبيه أمنحوتب الثالث. وبعد تغيير اسمه غادر أخناتون طيبة التى كانت تحت حكم أمون وبنى عاصمة جديدة أسفل النهر، وأسماها أخيتاتون (أفق أتون). وتسمى آثارها الآن باسم تل العمارنة^(٤).

١- بريستيد «تاريخ مصر» ص ٣٦٠، (ولكن مهما قد يكون من الواضح أن الديانة الجديدة للدولة أصلها من هليوبوليس، فإنها لم تكن مجرد عبادة للشمس، فكلمة أتون استُخدمت فى محل الكلمة القديمة «نوتر Nuter، وتعنى الإله، وواضح أن الإله ليس هو الشمس المادية). فومن الواضح أن ماكان الملك يذله هو القوة التى جعلت بها الشمس نفسها محسوسة على الأرض»، (فجر الضمير ص ٢٧٩). ويرى إيرمان فى صيغة تجييد الإله رأياً مشابهاً (١. إيرمان : عن الديانة المصرية A. Erman Die Aegyptische Religion سنة ١٩٠٥) : «هناك .. كلمات يقصد منها التعبير فى شكل مجرد عن واقعة أن الكوكب نفسه لم يكن محل عبادة، ولكنه الكائن الذى يظهر ذاته فى الكواكب». (فرويد)

٢- بريستيد : تاريخ مصر، ص ٢٧٤. (فرويد)

٣- أكتب اسم أخناتون كما يكتبه بريستيد Ikhnoton، (ويكتب أحياناً أخيناتون Akhenaton، ويعنى الاسم الجديد للملك نفس المعنى تقريبا للإسم السابق : «لقد رضى الله». قارن بذلك اسم جوفرى Godfrey الإنجليزى وجوتولد Gotthold الألمانى. (فرويد)

٤- فى هذا المكان عثر سنة ١٨٨٧ على المراسلات بين الملوك المصريين وأصدقائهم وأتباعهم فى آسيا، وهى مراسلات ثبتت أهميتها الكبرى لمعرفة التاريخ. (فرويد)

وكان اضطهاد الملك موجه أساساً إلى أمون، ولكن ليس ضده وحده، ففي كل أنحاء الإمبراطورية أغلقت المعابد ومنعت الصلوات وصودرت الممتلكات الخاصة بعبادة أمون. والواقع أن حماس الملك قد ذهب إلى أبعد من ذلك، حتى أنه أمر بالبحث فى النقوش فوق الآثار القديمة حتى يزال اسم الإله كلما جرى استخدامه فى صورة الجمع^(١). فلا عجب والحال هذا أن تثير هذه الأوامر رد فعل تعصبياً انتقامياً بين الكهنة الذين أقصوا وبين الشعب الغاضب، وهو رد الفعل الذى استطاع أن ينفّس عن نفسه بعد وفاة الملك، فديانة أتون لم تجد لها صدئ بين الشعب، وربما كانت قد تحددت داخل نطاق دائرة صغيرة حول شخص الملك، ويحيط الغموض بنهاية حياته، ونحن نعلم عن خلفاء له عددهم قليل وعمرهم قصير من أسرته، واضطر بسرعة زوج ابنته المسمى توت - عنخ أمون^(٢) إلى العودة إلى طيبة وإحلال اسم الإله أمون محل اسم أتون، وأعقب ذلك فترة من الفوضى حتى نجح القائد حور محب سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد فى استعادة النظام، وانطلقت الأسرة الثامنة عشرة المجيدة، وضاعت فى نفس الوقت فتوحاتها فى النوبة وآسيا. وفى تلك الفترة المحزنة التى أعقبت موت أختاتون عادت ديانات مصر القديمة إلى الظهور، وكانت ديانة أتون فى نهايتها، ودُمرت وسُلبت عاصمة أختاتون، واحتُقرت ذكراه كإنسان خبيث شرير.

١- تاريخ مصر : بريستيد، ص ٣٦٣. (فرويد)

٢- توت - عنخ - أتون الابن الأصغر للملك العظيم أمنحوتب الثالث وشقيق الملكة نفرتيتى والملك أختاتون، ولكنه أخ غير شقيق، وعندما بدأ الملك أختاتون ينتهج طريقاً يصلح به كهنة أمون تمردت عليه نفرتيتى وسكنت قصرأ بعيداً وظلت على مبادئ الثورة وأخذت معها أخاها توت - عنخ - أمون. ولم يقو أختاتون وأخوه سمنخكارع على تيار الثورة المضادة واختفيا من المسرح وتولى الملك توت - عنخ - أتون الشاب الصغير، وتزوج من بنت أخيه الثالثة الأميرة عنخس - ان - با - أتون، وسرعان ماخضع للتيار الرجعى وغير اسمه إلى توت هنخ أمون واسم زوجته إلى عنخس - ان - با - أمون، وترك العمارنة عائداً إلى طيبة. وانتهت الثورة الأختاتونية بالفشل، ولكن لؤمة الإلحاد لم تتع من البلاد، وقضى الملك الجديد ثمانى سنوات فى منتهى البذخ، ومقبرته مشهورة فى الآثار المصرية بالبذخ المسرف، وسرعان ماحدث انقلاب وتولى قائد الجيش حور محب الملك فأعلن رسمياً أن أفراد عائلة العمارنة ملحدون، واعتبره كهنة أمون أول ملك شرعى منذ وفاة الملك أمنحوتب الثالث، وبذلك ضعفت الثورة تماماً وانتصرت الرجعية ومحت كل أثر لعقيدة أتون وحرمت ذكرى الفراعنة الملحدين أختاتون وسمنخكارع وتوت عنخ أمون وأبى، ويعد أن تم انتصار الرجعية أعادت سلطان الإله أمون - رع واستمر ذلك أربعة قرون. (الحفى)

ولو لاحظنا الآن بعض السمات السلبية لديانة أتون فإن ذلك يخدم غرضاً لنا معيناً، ففي المقام الأول نلاحظ أن ديانة أتون تُستبعد منها كل أنواع الأساطير والسحر والشعوذة^(١).

ثم هناك الطريقة التي مُثل بها إله الشمس : ليست كالطريقة التي كانت سائدة في الأزمان المبكرة، بواسطة هرم صغير وصقر، ولكن - وهذا شئ يكاد يكون معقولاً - بواسطة قرص مستدير تخرج منه شعاعات تنتهي بأيدٍ بشرية. وبرغم كل الحب للفن في فترة العمارنة، فلم يوجد تمثيل مُشخص واحد لإله الشمس أتون، أو أننا نستطيع أن نقول عن ثقة أنه لن يوجد^(٢).

وأخيراً فهناك صمت تام حول أوزيريس إله الموت ومملكة الموتى. ولم تحتو الأناشيد والالتقوش على المقابر على أى شئ عما كان ربما أقرب الموضوعات إلى قلب المصرى. ولا يمكن التعبير عن معارضة ديانة أتون للديانة الشعبية بأوضح من ذلك^(٣).

✱ ✱ ✱

- ٣ -

إنى لأجازف الآن باستخراج النتيجة الآتية : إذا كان موسى مصرياً، وإذا كان قد نقل إلى اليهود ديانته هو نفسه، إذاً فقد كانت تلك الديانة هى ديانة أخناتون، أعنى ديانة أتون. ولقد قارنت فى الفصول السابقة الديانة اليهودية بديانة الشعب المصرى، ونهت إلى أنهما مختلفتان عن بعضهما. والآن سنقارن الديانة اليهودية بديانة أتون،

١- يقول آرثر ويجال (حياة وعصر أخناتون Arthur Weigall : The life and Times of Akhnaton سنة ١٩٢٣ ص ١٢١) إن أخناتون لم يعترف بوجود جحيم يجد الإنسان نفسه إزاء أهواله مضطراً إلى اللجوء إلى تعاويذ سحرية لاعدد لها. (إن أخناتون ألقى بكل هذه الصيغ فى النار، وكنس الجن والأرواح الخبيثة والأرواح الطيبة والمسوخ وأنصاف الآلهة وأوزيريس نفسه بكل توابعه. كنسهم ملقياً بهم فى اللهب حتى تحولوا إلى رماد». (فرويد)

٢- ويجال، المرجع السابق ص ١٠٢ «لم يسمح أخناتون بصنع أى صورة محفورة لأتون. وقال الملك إن الإله الجديد لاشكل له، وظل على هذا الرأى طوال حياته». (فرويد)

٣- إيرمان، المرجع السابق ص ٩٠ «لم يُسمع المزيد عن أوزيريس ومملكة الموتى». ويقول بريستيد فى (فجر الضمير) (ص ٢٩١) : تجهل أوزيريس تماماً، ولم يعد يُذكر فى أى سجل لأخناتون أو على أى من قبور العمارنة». (فرويد)

وينبغي أن نتوقع أن نجد أنهما متشابهتان أصلاً. ونعرف أن هذه المهمة ليست بالمهمة السهلة. وقد لانعرف الكثير عن ديانة أتون، والفضل في ذلك يرجع إلى الروح الانتقامية لكهنة أمون. ولم نعرف الديانة الموسوية إلا في شكلها النهائي كما حدده لها الكهنة اليهود بعد النفي، أى بعد موسى بنحو ثمانمائة سنة. فإذا كنا سنجد، رغم هذه المادة غير المبشرة، بعض الإشارات التى تتوافق مع افتراضنا، فإن لنا أن نقيّمها حقاً تقويماً عالياً.

وهناك طريق قصير لإثبات ما افترضناه من أن الديانة الموسوية ليست سوى ديانة أتون، ولكنى أخشى أن يقال لى أن مثل هذا الطريق متعذر، فالعقيدة اليهودية، كما هو معروف جيداً، تقول : Schema Jisroel Adonai Elohenu Adonai Echod. فإذا لم يكن الشبه بين اسم أتون المصرى (أو أتوم) وبين الكلمة العبرية أدوناي Adonai وبين اسم الإله السورى أدونيس Adonis^(١) مجرد صدفة، ولكنه نتيجة وحدة بدائية فى اللغة والمعنى، فإننا نستطيع أن نترجم الصيغة اليهودية السابقة هكذا : «اسمى يا إسرائيل، إن الهنا أتون (أدوناي) هو الإله الوحيد». وإنى للأسف غير مؤهل كلية لأن أحل هذا الإشكال، وكان فى مقدورى أن أعثر على أقل القليل من الحلول له فى الكتب المعنية^(٢)، ولكن ربما كان من الأوفى لنا ألا نيسر الأمور هكذا. وعلاوة على ذلك سنضطر إلى العودة إلى مشاكل الاسم الإلهي.

ومن السهل أن نتبين نقاط التشابه، وكذلك نقاط الاختلاف بين الديانتين، ولكنها لا تنيرنا كثيراً، فكلاهما شكل من التوحيد المتزمت، وسنميل إلى أن نرجع إلى هذه السمة الأساسية ما هو متشابه فى كل منهما. ولكن التوحيد اليهودى فى بعض نقاطه لا يقل تزمناً عن التوحيد المصرى - مثلاً عندما يمنع كل تصوير مرئى للإله. على أن أهم الاختلافات الجوهرية - بصرف النظر عن الاختلاف فى اسم الإله - هو أن الديانة اليهودية تمسك تماماً عن عبادة الشمس التى استمرت الديانة المصرية فى مشايعتها. ولقد أحسنا عند مقارنة الديانة اليهودية بالديانة الشعبية المصرية، أنه إلى جانب التعارض فى المبدأ، فإن هناك فى الاختلاف بين الديانتين عنصراً من التناقض المقصود، ويبدو أن إحساسنا ذاك له ما يبرره عندما نستبدل فى مقارنتنا الديانة اليهودية بديانة أتون التى طورها أخناتون، كما نعرف، فى عداً متعمد للديانة الشائعة. وأدهشنا - وعن حق - أن الديانة اليهودية

١- أدونيس : المعبود الفينيقى فتى بيبولوس الجميل، جرحه خنزير برى، ومسخته عشتروت زهرة. (الحفى)
٢- فقرات قليلة فقط من كتاب ويجال السابق الذكر ص ١٢، ١٩ حيث يقول : «ربما كان الإله أتوم الذى وصف رح بأنه الشمس الغارية، من نفس أصل أتون الذى كان يُقدّس عموماً فى شمال سوريا، وربما لذلك كانت كل ملكة أجنبية بالإضافة إلى حاشيتها تؤثر الإقامة فى هليوبوليس على طيبة». (فرويد)

لم تتحدث عن أى شئ بعد القبر، ومذهب هذا شأنه هو مذهب ينحو إلى التزام أدق أشكال التوحيد. ويختفى هذا الاندهاش إذا عدنا من الديانة اليهودية إلى ديانة أتون وتصورنا أن هذه السمة قد نقلت من الديانة الأخيرة، حيث كانت ضرورة من الضروريات بالنسبة لأختاتون في محاربة الديانة الشائعة التي كان إله الموت أوزيريس يلعب فيها ربما دوراً أكبر من أى إله آخر من آلهة العوالم العليا. واتفاق الديانة اليهودية مع ديانة أتون فى هذه النقطة الهامة هو الحجة القوية الأولى المؤيدة لافتراضنا، وسنرى أنها ليست الحجة الوحيدة.

ولم يعط موسى اليهود ديناً جيداً فقط، وإنما من المؤكد كذلك أنه أدخل عادة الختان. ولهذه النقطة أهمية حاسمة فى مشكلتنا، ولم يحدث أن ناقشنا أحد. والواقع أن التوراة ينقض هذه النقطة كثيراً، فهو من ناحية يرجع تاريخ عادة الختان إلى أيام زعماء القبائل، كعلامة للعهد بين الرب وبين إبراهيم، ومن ناحية أخرى يذكر النص فى فقرة غامضة بشكل خاص أن الرب غضب من موسى لأنه أهمل هذا العرف المقدس، واقترح أن يذبحه كعقاب. ولكن زوجة موسى، وهى من أهل مَدْيَن، أنقذت زوجها من غضب الرب، بأن أجرت العملية بسرعة. وعلى أى حال فهذه تحريفات لاينبغى أن تضل سبيلنا، وسنكشف بواقعها حالا. ويتبقى فى الواقع أن السؤال المتعلق بأصل الختان له إجابة واحدة : أن مصدره مصر. ويقص علينا هيرودوت^(١)، أبو التاريخ، أن عادة الختان كانت تمارس من زمن فى مصر، وتأييد قوله بفحص المومياءات، وكذلك بالرسومات على جدران المقابر. ولم يتبع شعب آخر من شعوب شرق البحر الأبيض، كما يصل إليه علمنا، هذه العادة. ونستطيع أن نقول عن يقين أن الساميين^(٢) والبابليين^(٣) والسومريين^(٤) لم يكونوا يختنون. والتوراة نفسها تقول مثل

١- هيرودوت المؤرخ الإغريقي المشهور ولد فى هاليكارناس نحو سنة ٤٨٤ ومات نحو سنة ٤٢٠ ق.م.، وعُرف بأسفاره الكثيرة، وقصّ علينا فى كتبه كل الأحداث والأساطير التى من شأنها أن أبرزت العالم القديم الذى كان يختلف عن عالم اليونان، والذى كان يطلق عليه العالم المتبربر، ومحيطه مصر وميديا وفارس، وهو القائل «مصر هبة النيل». (الحفنى)

٢- الساميون : نسبة إلى سام بن نوح، ويُطلق الاسم على القبائل البدوية التى كانت تسكن فلسطين وشبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين والأردن. واشتهر الاسم فى التاريخ المعاصر نسبة إلى العداء للسامية، على أن مصطلح العداء للسامية كان يقصد به أصلاً العداء لليهود. (الحفنى)

٣- البابليون : نسبة إلى بابل، وهى مدينة تمت إلى الدنيا القديمة، وما تزال آثارها موجودة فى العراق على نهر الفرات على بعد ١٦٠ كيلومترا من العاصمة بغداد، بناها حمورابى العظيم مؤسس إمبراطورية بابل. ومن ملوك بابل نبوخذ ناصر الثانى الذى استولى على اورشليم سنة ٥٨٧ ق.م. وأسر اليهود وساقهم أمامه فى أعداد عظيمة إلى بابل. (الحفنى)

٤- السومريون : سكان سومر، إحدى الإمبراطوريات القديمة، فى الشرق الأوسط، وكانت لها حضارة ولغة، ولكنها درست باستيلاء بابل عليها سنة ٢١٠٥ ق.م. (الحفنى)

ذلك فيما يذكره من تواريخ عن سكان كنعان(١)؛ وهو ما نفترضه في قصة المغامرة التي وقعت بين ابنه يعقوب وأمير سيشيم(٢). واحتمال أن اليهود في مصر قد اختاروا استخدام الختان في أي أمر آخر سوى فيما يتعلق بالديانة التي أعطاهم إياها موسى، أمر يمكن رفضه كشيء لا يزداد عنه. والآن ليكن في بالنا أن الختان كان يمارسه الشعب في مصر بوصفه عادة عامة، ولنوافق للحظة على الافتراض المعتاد الذي يقول بأن موسى كان يهودياً يريد أن يحرر بني جنسه من استعباد سيد أعلى مصري، وأن يسير بهم إلى خارج البلد، ليطورو لأنفسهم وجوداً مستقلاً تملأه الثقة بأنفسهم - وهو مطلب حققه فعلاً. فأى مغزى يمكن أن يكون في أن يفرض عليهم في نفس الوقت ممارسة عادة ثقيلة حولتهم افتراضاً إلى مصريين، وكان من شأنها أن تبقى تذكراً لمصر يقضاً فيهم، بينما ما كان من الممكن أن يكون هدفه إلا شيئاً آخر : وهو أن يحس شعبه بأنه قد صار غريباً على البلد الذي عرف عبوديته، وأن يتقلب على حنينه إلى «قدور لحم مصر»؟ لا مغزى هناك، ومن ثم فالواقعة التي بدأت منها، والاقتراح الذي أضفته عليها، كلاهما متعارض مع الآخر بشدة، حتى أنني لأجرو على أن أخلص إلى النتيجة الآتية : إذا كان موسى قد أعطى اليهود، ليس فقط ديناً جديداً، ولكنه أعطاهم كذلك شرعة الختان، فموسى ليس يهودياً، ولكنه مصري، وإذن تكون الديانة الموسوية احتمالاً ديانة مصرية : هي ديانة أتون - بسبب معارضتها للديانة الشائعة - والتي تتفق معها الديانة اليهودية في بعض نقاطها البارزة.

وكما لاحظت سابقاً، يخلق افتراض أن موسى لم يكن يهودياً بل مصرياً لغزاً جديداً، فما فعله ويمكن فهمه بسهولة إذا كان يهودياً، يصبح غير مفهوم من مصري، ولكن إذا وضعنا موسى في عهد أخناتون وضممناه إلى هذا الفرعون، لحل اللغز، ولبرز دافع محتمل يجيب على كل أسئلتنا. فلنفترض أن موسى كان نبيلاً مرموقاً، وربما كان حقاً من أعضاء البيت المالِك كما تقول الأسطورة، ولا بد أنه كان على

١- الكنعانيون : سكان فلسطين الأصليين، وهم قبائل ظهرت أولاً على ساحل الخليج العربي، ثم ارتحلوا إلى سوريا وفلسطين، وهم أعدى أعداء اليهود.

٢- عندما استخدم روايه التوراة بمثل هذه الطريقة الاستبدادية وأقيس عليها لا أثبت ما أقول كلما تراعى لي ذلك، وأرفض شهادتها بون أيه شبهة عندما تتعارض مع نتائجي، أعرف جيداً أني أعرض نفسي بهذا إلى النقد العنيف فيما يتعلق بمنهجي وأنى أضعف قوة براهيني. ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أعامل بها مادة قد أثقت الوثوق بها كما نعرف جيداً بفعل نفوذ الاتجاهات المشبوهة ونأمل أن يأتي التبرير فيما بعد نكون قد كشفنا عن تلك الدوافع السريه. وليس إلى اليقين في أيه قضيه من سبيل. وعلاوة ذلك قد نقول إن كل المؤلفين الآخرين قد فعلوا مثلنا. (فرويد)

وهي بإمكانياته العظيمة، وكان طموحاً وجم النشاط، وربما رأى نفسه في مستقبل مظلم كزعيم لشعبه وحاكم من حكام الإمبراطورية، وأنه كان من المؤمنين المتبعين للديانة الجديدة، بحكم صلته الوثيقة بفرعون، وأنه كان يفهم فهماً كاملاً مبادئها الأساسية وجعلها مبادئه. وبموت الملك وما أعقب ذلك من رد فعل، رأى كل آماله ومشاريعه تُدمر. فإذا لم يكن في وسعه أن يتنكر لمعتقداته العزيزة عليه الأثيرة عنده، فإن مصر إذن لن يكون لديها ما يمكن أن تمنحه إياه أكثر من ذلك، فلقد فقد بلده الأم، وفي ساعة اليأس هذه عثر على حل غير هادئ، فأخناتون العالم جعل نفسه غريباً عن شعبه وترك عالم إمبراطوريته يتهاوى، ووضعت طبيعة موسى الإيجابية خطة لتأسيس إمبراطورية بديلة والعثور على شعب جديد يمكن أن يعطيه الديانة التي اختقرتها مصر. وكما نرى فهي محاولة بطولية أن يناضل ضد قدره، وأن يعثر في اتجاهين على ما يعوضه عن الخسائر التي منى بها من خلال كارثة أخناتون. وربما كان في ذلك الوقت حاكماً لإقليم الحدود ذاك (المسمى جوسين Go-sen) (١) الذي - ربما في «عهد الهكسوس» (٢) استقرت به بعض القبائل السامية. وهؤلاء اختارهم ليكونوا شعبه الجديد. وكان ذلك قراراً تاريخياً (٣)!

١- في لغة مصر القديمة «جوشن» وفي التوراة «جاسان». (الحفنى)

٢- الهكسوس، أو الملوك الرعاة مشتق من كلمتي هيك وكاس ومعناها الحاكم الأجنبي، والكلمة مصرية قديمة، والاسم ورد في البردية المعروفة باسم بردية تورين، وهم بنو آسيويين استعمروا منطقة الشرقية من مصر وهدموا المعابد والمدن واستعبوا الأهالي وحكموا من منف وكونوا الأسرة الخامسة عشرة. ويدعى المؤرخ اليهودي المخادع يوسيفوس أن الهكسوس هم العبرانيون، ولكن نقوش الملكة حتشبسوت تقول غير ذلك، وتحكى أن مصر حكمها في يوم من الأيام أجانب من آسيا لم يكونوا يعبدون رع، ولكن كانوا يعبدون الإله ست وعاصمتهم أفاديس، ولكن «كاموس» المصري ثار عليهم وحرد مصر منهم وطاردهم أحسن حتى فلسطين، ومن بعدها لم تقم لهم قائمة بعد أن استمروا يحكمون مصر ١٠٨ سنة. (الحفنى)

٣- إذا كان موسى موظفاً من الموظفين المصريين الكبار فيوسنا أن نفهم أنه مناسب لدور الزعيم الذي لعبه مع اليهود؛ وإذا كان كاهناً فإن فكرة إعطاء شعبه نبياً جديداً لا بد كانت فكرة قريبة من قلبه، وفي كلا الحالتين كان موسى سيستمر في مهنته السابقة، ولكن أميراً من أصل ملكي يمكن أن يكون الاثنان معاً بسهولة : الحاكم والكاهن. وفي تقرير فلافيوس يوسيفوس (الآثار اليهودية) الذي يقبل أسطورة تعريضه للماء، ولكن يبدو أنه يعرف روايات أخرى خلاف رواية التوراة، يظهر ككائد مصري يقود حملة منتصرة في أثيوبيا. (فرويد)

ولقد أقام علاقات مع هذه القبائل السامية ووضع نفسه على رأسهم وقاد الخروج «بقوة الذراع»، ويمكن افتراض أن هذا الخروج قد تم بطريقة مخالفة تماماً لرواية التوراة، أى أنه تمّ فى سلام وبون أن يكون هناك من تبعه فيه. وجعلت سلطة موسى الخروج ممكناً، ولم تكن هناك قوة مركزية يمكن أن تمنعه.

وطبقاً لنظريتنا فإن الخروج من مصر قد تمّ بين سنتى ١٣٥٨ و١٢٥٠ ق.م، أى بعد موت أخناتون، وقبل استعادة حارمحب^(١) لسلطة الدولة. ولا يمكن أن يكون مقصود الارتحال عن أرض مصر إلا أرض كنعان، فبعد انهيار سيادة مصر اجتاحت البلاد جحافل الأراميين، يخضعون وينهبون، وهكذا أبانوا كيف يمكن لشعب أوتى القدرة أن يستولى على أراض جديدة. ونعرف هؤلاء المحاربين من الرسائل التى وجدت سنة ١٨٨٧ فى أرشيف أطلال مدينة العمارنة، ويطلق عليهم فيها اسم عابيرو Habiru، وانتقل الاسم - ولا أحد يعرف كيف - إلى الفزاة اليهود، العبرانيين (Hebrews) الذين وفدوا فيما بعد، ولم يكن من الممكن أن يشار إليهم فى رسائل العمارنة.

وكانت القبائل، التى كانت أقرب القبائل تقريباً إلى اليهود النازحين عن مصر وقتها، تعيش كذلك جنوبى فلسطين - فى أرض كنعان.

والدافع الذى تصورناه بشكل عام كسبب للخروج ينسحب كذلك على الأخذ بالختان. ونعرف بأية طريقة تتفعل الكائنات الإنسانية - كل من الشعوب والأفراد - تجاه هذه العادة القديمة التى لم تعد مفهومة تقريباً. ومن لا يمارسونها ينظرون إليها كعادة غريبة جداً ويجدونها منفرة نوعاً؛ ولكن أولئك الذين اختاروا الختان يفخرون به، ويحسون

١- ومعنى ذلك تاريخاً مبكراً بنحو قرن عما يفترضه معظم المؤرخين، الذين يفترضون أن ذلك حدث فى الأسرة التاسعة عشرة فى عهد مرنبتاح، أو ربما أقل من ذلك بقليل، لأنه يبدو أن السجلات الرسمية تشتمل على فترة حكم حارمحب التى تخللت اعتلاء ملكين للعرش. (فرويد)

حارمحب : أو حورمحب، قائد جيش مصر فى الفترة التى أعقبت الثورة على الملك أخناتون، وقد أعاد الأمن إلى ربوع البلاد بقوة السلاح، وبه تتأكد قوة الرجعية وانتصارها على الجديد الذى أتى به أخناتون، وقد أعلن فى بداية حكمه أن أعضاء أسرة العمارنة ملحدون، واعتُبر أول ملك شرعى بعد موت أمنموتب الثالث، وهو الملك الذى محا كل أثر لعقيدة أتون، وحرّم ذكرى الفرعنة المحيدين. (الحفنى)

مرنبتاح : هو الابن الثالث عشر لرمسيس الثانى، وتفنّى شعراء مصر أيامه بانتصاراته، ولأول مرة يأتى ذكر كلمة إسرائيل فى نص مصرى فى اللوح الذى اكتُشف وأطلق عليه اسمه والذى يشيد بتخريب الملك لإسرائيل. (الحفنى)

بأنفسهم أسمى من غيرهم، وأنهم شرفوا، وينظرون باحتقار إلى الآخرين، الذين يبذرون لهم غير مطهرين. وحتى اليوم يسب المسلم المسيحي ويناديه: «كلب لم يختن»^(١). والمصدق أن موسى، وكان هو نفسه مختوناً بوصفه مصرياً، وكان له نفس الرأي. وكان على اليهود الذين برفقتهم غادر موسى بلده أن يكونوا بديلاً أفضل من المصريين الذين خلفهم وراءه، وما كان يجب أن يكونوا أدنى منهم تحت أى ظرف من الظروف. وكان يتمنى أن يجعل منهم «أمة مقدسة» - فهكذا قيل تحديداً فى نص التوراة - وكعلامة لتقديدهم بالنذر فقد أخذهم بالمادة التى جعلتهم على الأقل مساويين للمصريين. وأكثر من ذلك أنه كان يجب لهم لو أن مثل هذه العادة عزلتهم ومنعتهم من الاختلاط بالشعوب الأجنبية الأخرى التى سيلتقون بها خلال ترحالهم، مثلما ابتعد المصريون عن كل الأجانب^(٢).

١- هذا مايقوله فرويد، ولكننا فى بلاد إسلامية، ولم يحدث أن قلنا ذلك لأحد من المسيحيين، وإخواننا المسيحيون أنفسهم شهود على ذلك، ولعل القارئ يلاحظ أن كثيراً مما يكتبه فرويد من مثل هذه الملحوظات المتصفة لاسند له من الواقع. ولست أدري من أين يأتى بهذا الكلام الغريب، فطوال عمرى، وكمسلم، لم أسمع نفسى ولا أحداً من شعبي ولا من الشعوب العربية، على قدر مسافرتى، يقول مثل هذا الكلام. وقد عثرت على مثل هذا الكلام فى إنجيل برنابا حيث يقول يسوع لتلاميذه فى الفصل الثانى والعشرين: الحق أقول لكم إن الكلب أفضل من رجل غير مختون (الآية ٢). (الحقنى)

٢- يذكر هيرودوت الذى زار مصر نحو سنة ٤٥٠ ق.م فى وصفه لأسفاره سمة للمصريين تظهر تشابهاً مذهلاً مع الملامح المعروفة عن الشعب اليهودى الأكثر حداثة. «أنهم فى كل النواحي أكثر تديناً من غيرهم من الشعوب، ويتميزون كذلك عنهم بكثير من عاداتهم، مثل الختان، الذى أخذوا به قبل غيرهم لأسباب تتعلق بالنظافة؛ ثم باشمزازهم من الخنازير، ولاشك أن ذلك راجع إلى اعتقادهم أن الإله ست قد أصاب حورس عندما كان متخفياً فى شكل خنزير أسود؛ وأخيراً ويتميز أكثر بتقديسهم للبق الذى لايلكونه أبداً ولا يضحون به، لأنهم بذلك سيفضيون إيزيس ذات القرون. ومن ثم فإن المصرى سواء كان رجلاً أو امرأة، لايجرؤ على تقبيل اليونانى، أو على استخدام سكينته أو سيخه أو وعائه اللطيف، أو على تناول لحم ثور نظيف لو كان قد استخدم فى قطع هذا اللحم سكيناً يملكه يونانى وفى ضيق مترفع نظروا إلى الشعوب الأخرى التى كانت غير نظيفة، والتى لم تكن قريبة من الآلهة». (عن إيرمان : عن الديانة المصرية ص ١٨١) (Erman : Die Aegyptische Religion). ولاننسى هنا طبعاً مايشابه ذلك فى حياة الهند. وتتسائل استطراداً فى الكلام، وماالذى أعطى الشاعر اليهودى هاينى Heine فى القرن التاسع عشر فكرة الشكوى من بيانته بوصفها «الوواء القادم من وادى النيل، والمعتقدات المريضة لقضاء المصريين»؟ (فرويد)

وحورس الذى يذكره فرويد هو إله مصرى ابن الإله أوزيريس من الإلهة إيزيس، وكان ست أخو أوزيريس قد قتل أوزيريس، ومن ثم خرج حورس ليتسلم عرش أبيه ويدافع عنه ضد ست، وانتصرت إيزيس لابنها، وظل الصراع حاداً بين حورس الطفل الإلهى وبين ست، وتدخلت إيزيس وانتصرت الآلهة لحورس وأعطوه وظيفة أبيه ملكاً على طيبة، أما ست فانضم إلى مجمع الآلهة باختياره. وقصة الصراع بين ست وحورس مدونة على بردية تسمى بردية شستر بيتى. (الحقنى)

وهاينى الذى يذكره فرويد كان شاعراً ألمانيا يهودياً، ولد فى دسلدورف ومات فى باريس (١٧٩٧-١٨٥٦) وعرف بشعره الساخر المتشائم، وله قصائد ولوحات حول سفرياته كتبها بالفرنسية والألمانية. (الحقنى)

ومع ذلك فقد سارت الرواية اليهودية فيما بعد كما لو كانت قد ضايقتها نتيجة الأفكار التي انتهينا إلى الكشف عنها توأ، فالموافقة على أن الختان عادة مصرية أدخلها موسى يعنى تقريباً الاعتراف بأن الديانة التي نقلها إليهم موسى كانت مصرية كذلك. ولكن لليهود حججاً قوية يدحضون بها هذه الواقعة، ولذلك فإن الحقيقة حول الختان كان لابد من نقضها كذلك.

※ ※ ※

-٤-

وعند هذه النقطة أتوقع أن أسمع عتاباً بأنى قد بينت نظريتي - التي تضع موسى المصرى فى عهد أخناتون، واستمدت من الوضع السياسى للبلد الذى كان فيه فى ذاك الوقت قراره بحماية الشعب اليهودى، وسلّمت بأن ديانة أتون هى الديانة التي أعطاها لشعبه، أو أنها الديانة التي أثقلهم بها، والتي كانت قد أبطلت من مصر نفسها توا - وعند هذه النقطة أتوقع أن أسمع عتاباً بأنى قد بنيت هذا الصرح من التخمينات بيقين عظيم، لاتوجد أسس كافية فى المادة نفسها تبرهن عليه. وأظن أن هذا العتاب لن يكون له ما يبرره، فلقد سبق لى فى المقدمة أن أكدت عنصر الشك، ووضعت علامة استفهام أمام الأقواس، كما تراسى لى، ويمكن لذلك أن أجنب نفسى مشقة تكراره عند كل نقطة داخل الأقواس.

وقد تواصل بعض من ملحوظاتي النقدية المناقشة، فجوهر بحثنا، وهو اعتماد التوحيد اليهودى على حادثة التوحيد فى التاريخ المصرى، قد خمنها وألح إليها عدد من الباحثين. ولست فى حاجة إلى الاستشهاد بأقوالهم هنا، حيث أنه لم يحدث أن استطلع أحدهم أن يقول لنا عن الوسائل التي تحقق بها هذا التأثير. وحتى إذا ارتبط هذا النفوذ بفرديّة موسى، كما أرتئى، فلا بد لنا أن نزن الاحتمالات الأخرى ولانقتصر على الاحتمال الذى اخترناه هنا. ولا يجب أن نفترض أن انهزام ديانة أتون قد أنهى تماماً الاتجاه التوحيدي من مصر، فقد تحملت الكارثة مدرسة الكهنة فى أون، وهى المدرسة التي قامت على ذاك الاتجاه، وربما كانت قد شددت أجيالاً بأكملها بعد أخناتون إلى مدار فكرها الدينى. ومن الجائز جداً لذلك، فكراً، أن يكون موسى قد أتمّ العمل، وحتى ولو كان مجرد تابع لمدرسة أون أو مجرد عضو فيها. ويؤخر هذا التخمين تاريخ الخروج ويقربّه إلى الزمن المفترض

عادة، وهو القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وإلا فليس هناك ما يزيجه، وعلينا أن ننبد الفراسة التي اكتسبناها ونحن ننفذ داخل أهداف موسى، وأن نلقى بعيداً بفكرة أن الخروج قد سهّله الفوضى التي سادت مصر، فقد حكم البلد ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذين جاؤا بعد أخناتون، وحكموها بيد قوية. ولاتتوافق كل الظروف، الداخلية والخارجية، التي يسرت الخروج منها في الفترة التي أعقبت مباشرة موت الملك الضال.

ولليهود أدب ديني غني إضافي علاوة على التوراة، توجد به الأساطير والخرافات التي نُسجت عبر القرون حول صورة زعيمهم الأول الضخمة ومؤسس ديانتهم، والتي توجت ذاته وجعلتها غامضة في نفس الوقت. وقد توجد مبعثرة في تلك المادة بعض النقف الماثورة شرعاً، والتي لم تجد مكاناً في أسفار موسى الخمسة. وتصف إحدى هذه الأساطير بطريقة جذابة كيف أبان طموح الإنسان موسى عن نفسه في طفولته، فعندما أخذه فرعون بين ذراعيه ورفعته مداعباً إلى أعلى، خطف الطفل ابن الثلاث سنوات التاج من فوق رأس فرعون، ووضع على رأسه هو. وانزعج الملك لذاك التنذير، وحرص على استشارة أهل الحكمة عنده^(١) ... ثم يقال لنا مرة أخرى عن بطولات منتصرة خاضها بوصفه ضابطاً مصرياً في الحبشة، وأنه، فيما يتعلق بذلك أيضاً اضطر إلى الهرب من البلد، لأنه كانت له أسبابه للخوف من حسد نفر من رجال البلاط، أو حتى من فرعون نفسه. وتضفي قصة التوراة نفسها سمات معينة على موسى، يعيل الواحد إلى تصديقها. وهي تصفه كإنسان غضوب حاد الطبع - مثلما في حماته يقتل ملاحظ العمال اللفظ الذي أساء معاملة عامل يهودي، أو مثلما، في استيائه من مروق شعبه، يحطم الألواح التي أعطاهما له الله فوق جبل سيناء. والواقع أن الله عاقبه أخيراً لعمل ارتكبه عن غير صبر - لم يقل لنا ماذا كان. وطالما أن سمة كتلك ليست من السمات المحمودة، فقد تكون فعلاً حقيقة تاريخية. وإسنا نرفض بالمثل أن كثيراً من سمات اليهود التي أدمجت في تصورهم المبكر للإله، عندما جعلوه غيراً ومتجهماً ولايسهل إرضاءه، قد استمدوها أصلاً من ذكراهم لموسى، لأنه في الحقيقة لم يكن الإله غير المرئي هو الذي قادهم خارج مصر، بل كان هو الإنسان موسى. وتستحق سمة أخرى تنسب إليه أن تنال منا اهتماماً خاصاً، فيقال إن موسى كان «بطيناً في الكلام»^(٢) - وهذا يعني أنه كان مصاباً بعائق يعوقه عن النطق السليم أو بمنعه

١- توجد نفس الحكاية مع تغيير طفيف لدى يوسيفوس. (فرويد)

٢- يقول القرآن: «واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي»، سورة طه، الآية ٢٨. ويقول سفر الخروج «بل أنا ثقيل الفم واللسان»، الإصحاح الرابع. (الحفنى)

منه - وذلك اضطر أن يستعين بهارون (الذى يسمى أخاه) ليعاونه فى مناقشاته المفروضة مع فرعون. وتلك أيضاً قد تكون حقيقة تاريخية، ويمكن أن نضيفها عن رضا إلى محاولة جعل صورة الإنسان العظيم حيّة. وربما كان لها مع ذلك معنى آخر وأكثر أهمية. وقد تستحضر القصة واقعة أن موسى كان يتحدث لفة أخرى، ولم يكن يستطيع أن يتفاهم مع مصرييه الجدد الساميين دون مساعدة مترجم - على الأقل ليس فى بداية اتصالهما. ومن ثم يكون التأكيد الجديد لافتراض: أن موسى كان مصرياً.

ويبدو الآن كما لو كان قطار الفكر قد بلغ منتهاه، على الأقل الآن. ومن افتراض أن موسى كان مصرياً، سواء أثبت ذلك أم لم يثبت، لا يمكن استخلاص شئ أكثر من ذلك الآن. وليس بوسع أى مؤرخ أن ينظر إلى القصة التى يرويها التوراة عن موسى والخروج، بأكثر من أنها أسطورة دينية، قلبت إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها. ولسنا نعرف ما الذى كانت عليه الرواية الأصلية. أما ما كانت عليه الاتجاهات التى أعملت الانحراف فى الرواية، فهذا مانحِب أن نخمنه، ولكننا نُسْتبقي فى الظلام بحكم جهلنا للأحداث التاريخية. وإن يضلنا أن النظرية التى نحاول بها إعادة بناء الرواية لا تترك مكاناً للكثير جداً من سمات النص المتنوع المشاهد الذى يورده التوراة - الأوبئة العشرة، عبور البحر الأحمر، والتنزيل المقدس على جبل سيناء. ولكننا لانستطيع أن نبقي بغير اكتشافات عندما نجد أنفسنا فى تعارض مع البحوث التاريخية اليقظة لعصرنا.

وهؤلاء المؤرخون الحديثون الذين يمثلهم خير تمثيل أدوارد ميير^(١) يتبعون نص التوراة فى نقطة واحدة حاسمة، فهم يسلّمون بأن القبائل اليهودية التى أصبحت فيما بعد شعب إسرائيل، قد قبلت فى وقت معين ديناً جديداً، ولكن هذه الحادثة لم تقع فى مصر، وليس كذلك عند سفح جبل شبه جزيرة سيناء، ولكن عند مكان يدعى «مِربَة قادش - Meri-Quades - bat»، وهو واحة تتميز بوفرة ينابيعها وأبارها، فى البلاد الواقعة جنوبي فلسطين، بين الطرف الشرقى لشبه جزيرة سيناء والطرف الغربى لشبه الجزيرة العربية، وهناك اعتنقت هذه القبائل عبادة الإله يهوه Jahve، وربما كان ذلك نقلاً عن قبائل المدينيين العربية التى كانت تعيش فى الجوار، ونحسب أن القبائل الأخرى المجاورة كانت هى الأخرى من أتباع ذلك الإله.

١- (Eduard Meyer) : Die Israeliten und ihre Nachbarts amme (1906)

ومن المؤكد أن يهوه كان إليها بركانياً، وكما نعرف فإن مصر تخلو من البراكين، ولم يحدث أن كانت جبال شبه جزيرة سيناء بركانية، ولكن البراكين، من ناحية أخرى، التي ربما كانت ماتزال حية حتى مرحلة متأخرة، توجد على طول الطرف الغربي لشبه الجزيرة العربية. ولا بد أن أحد هذه الجبال هو جبل حوريب سيناء Sinai Horeb الذي يعتقد أنه مقر يهوه^(١). وبرغم كل التغييرات التي طرأت على نص التوراة، نستطيع أن نعيد - تبعاً لميير - بناء الشخصية الأصلية للإله : فهو مارد، جبار متعطش للدماء يجول في الليل ويتجنب ضوء النهار^(٢).

وكان الوسيط بين الشعب والإله عند هذا الميلاد لديانة جديدة يسمى موسى، وكان زوج ابنة كاهن من أهل مدين اسمه يثرون (النبى شعيب) وكان يرعى غنم يثرون عندما كُف بالدعوة، وقد ذهب إليه يثرون في قادش ليزوده بما عليه أن يفعل.

ويقول إوارد ميير أنه فعلاً لم يشك أبداً في وجود نواة من الحقيقة التاريخية في قصة الأسر في مصر والكارثة التي وقعت للمصريين^(٣)، ولكنه صراحةً لا يعرف المكان الذي جرت فيه تلك الواقعة المعترف بها، ولا يعرف ما الذي يفعله بها. وهو لا يريد أن يقر بأن الديانة اليهودية أخذت شيئاً إلا عادة الختان، وهو يزودنا فيما سبق أن قلنا بفكرتين هامتين : الأولى أن يشوع طلب من الشعب أن يقبل الختان «ليدحرج عار مصر»^(٤)، والثانية عما رده هيرودوت من أن الفينيقيين (الذين ربما هم اليهود) والسوريين في فلسطين اعترفوا أنفسهم بأنهم تعلموا عادة الختان من المصريين^(٥). ولكن ميير لا يهضم فكرة موسى كان مصرياً، وهو يقول «إن موسى الذي نعرفه هو جد كهنة قادش، ومن ثم فهو بالنسبة إلى العقيدة صورة لأسطورة النسب وليس شخصاً تاريخياً». ولذلك لم ينجح واحد من أولئك الذين عاملوه كشخص تاريخي (فيما عدا أولئك الذين يقبلون التراث برمته كحقيقة تاريخية)

١- يستبقى نص التوراة فقرات معينة تقول لنا أن يهوه هبط من سيناء إلى مريّة قادش. (فرويد)

٢- المرجع السابق ص ٢٨، ٥٨.

٣- المرجع السابق ص ٤٩.

٤- يضع فرويد النص السابق بين قوسين، ولكنه يرد في سفر يشوع الإصحاح الخامس الفقرة الثانية هكذا «قد دحرجت عنكم عار مصر». «الحنفي»

٥- المرجع السابق ص ٤٤٩.

فى ملء هذا الشكل الفارغ بأى مضمون، وفى وصفه كفرد مشخص؛ ولم يكن لديهم شئ يقولونه لنا عما حققه أو عن رسالته فى التاريخ^(١).

ومن ناحية أخرى يظل ميير يردد دون ملل علاقة موسى بقادش ومدين: «صورة موسى المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمدين والأماكن المقدسة فى الصحراء...»^(٢). وهذه الصورة لموسى ترتبط ارتباطاً متلازماً بقادش (ماسّة ومربة). وتكتمل الصورة بعلاقة المصاهرة بالكاهن المدينى. ومن ناحية أخرى فإن الارتباط بالخروج، وقصة شبابه فى جملتها، ثانويتان كلياً، ومجرد نتيجتين لضرورة أن يتلامس موسى فى قصة متصلة الأجزاء مترابطة^(٣). وهو يلاحظ أيضاً أن السمات التى تتضمنها قصة شباب موسى قد حذفت فيما بعد. «فلم يعد فى مدين مصرى ولا ربيباً لفرعون، ولكنه راع يتبدى له يهوا. وفى قصة الأوبئة العشرة، ينتهى ذكر علاقاته السابقة، رغم أنه كان من الممكن استخدامها استخداماً مؤثراً، ويُنسَى تماماً الأمر الصادر بقتل الطفل الإسرائيلى المولود الأول. ولا يُذكر لموسى أى دور إطلاقاً فى الخروج وفى هلاك المصريين، بل لا يرد أى ذكر له. وتغيب كلية فى موسى الأكثر تأخراً سمات البطل التى سبق افتراضها له فى الطفولة فهو ليس سوى رسول الله، وصاحب معجزات وقد أمده يهوا بقوى خارقة^(٤)».

ولا يسعنا أن نهرب من الإحساس بأن موسى قادش ومدين هذا، الذى لا يمكن للرواية أن تنسب إليه كذلك انتصاب حية جريئة كإله بارى، هو شخص مختلف تماماً عن المصرى الجليل الذى استقرأناه، والذى كشف لشعبه ديناً حُرْم فيه السحر والشعوذة كل التحريم. وربما لم يكن اختلاف موسى المصرى عن موسى المدينى بأقل من اختلاف الإله العالمى أتون عن المارد يهوا على جبله المقدس، وإذ سلمنا بأى نصيب من الصحة للمعلومة التى يقول بها المؤرخون الحديثون، فعلينا أن نسلم كذلك بأن الخيط الذى تمنينا أن نسحبه من افتراض أن موسى كان مصرى قد انقطع للمرة الثانية وأنه انقطع هذ المرة، كما يبدو، دون أى أمل فى ربطه من جديد.

١- المرجع السابق ص ٤٥١.

٢- المرجع السابق ص ٤٩.

٣- المرجع السابق ص ٧٢.

٤- المرجع السابق ص ٤٧.

ولكن مخرجاً من هذه المشكلة يعن كذلك على غير المتوقع، فلقد استمرت الجهود التي كانت ترى في موسى صورة تتجاوز كاهن قادش وتؤكد الشهرة التي أكسبته إياها الرواية، وقام بها جريسمان Gressmann وآخرون. وفي سنة ١٩٢٢ اكتشف إرنست سيلين^(١) اكتشافاً له أهمية حاسمة، فلقد وجد في سفر النبي هوشع (في النصف الثاني من القرن الثامن) أثراً لاتخطئ لرواية تفيد أن مؤسس ديانتهم موسى قد صادف نهاية عنيفة في تمرد شعبه العنيد المشاكس، لأنهم كانوا قد هجروا في ذلك الوقت الديانة التي أقامها^(٢). وليس هوشع وحده الذي يقول هذه الرواية، فهي تتكرر في كتابات معظم الأنبياء اللاحقين، وطبقاً لسيلين فإنها في الواقع كانت الأساس لكل التوقعات اللاحقة للمسيح. وحوالي نهاية النفي في بابل دبّ الأمل بين الشعب اليهودي في عودة الرجل الذي قتلوه بغلظة من مملكة الموتى ليقود شعبه النادم - وربما ليس شعبه وحده - إلى عالم السعادة الأبدية. ولا وجود فيما نحن بصددده لأية شواهد ظاهرة عن مصير مؤسس أية ديانة لاحقة.

ولست طبعاً في موقف يسمح لي بتقرير ما إذا كان سيلين قد فسّر تفسيراً صحيحاً الفقرات المعنية في أسفار الأنبياء. فإذا كان مصيباً مع ذلك فربما جاز لنا أن نصدق من الناحية التاريخية الرواية التي أقرها هو، لأن مثل هذه الأمور لا تُخترع بسهولة، ولا يوجد دافع واضح يدفع صاحبها إلى اختراعها. وإذا كانت هذه الأمور قد حدثت فعلاً، فإن الرغبة في تناسيها رغبة نفهمها بسهولة ولا حاجة بنا إلى أن نتقبل كل تفاصيل الرواية، ويظن سيلين أن أرض شيتيم Shittim شرقي الأردن هي الأرض التي يُشار إليها بوصفها مسرح هذا الفعل العنيف. وسنرى رغم ذلك أن اختيار هذا الموضع لا يتفق مع نظريتنا.

وانر رأي سيلين، ولنفترض معه أن موسى قد قتلته اليهود، وأن الديانة التي

Ernst Sellin : Mose und seine Bedeutung fur die israelitische - judische Religionsgeschichte (1922).

٢- يشير فرويد إلى النص الوارد في سفر هوشع الإصحاح الثاني عشر الآية ١٢ وهو رب يعقوب إلى صحراء آرام وخدم إسرائيل لأجل امرأة، ولأجل امرأة رعى. وينبئ أصدع الرب إسرائيل من مصر وينبئ حفظ... أغاظه إسرائيل بمرارة فيترك دماؤه عليه ويرد سيده عاره عليه. (الحفني)

اشترعها قد هُجرت، فهذا يسمح لنا بأن نغزل خيوطنا أبعد دون أن نتعارض مع النتائج المأمونة للبحث التاريخي. ولكننا نغامر بأن نستقل عن المؤرخين في النواحي الأخرى ونشعل الدرب الذي نسير عليه وحدنا بنور متوهج. ولكن الخروج من مصر يظل هو نقطة بدايتنا، ولا بد أن عدد اليهود الذين رحلوا عن البلد مع موسى كان عدداً كبيراً، وما كان لذلك وهو الرجل الطموح بمشاريعه الضخمة أن يحفل بجماعة صغيرة. ومن المحتمل أن المهاجرين كانوا في البلد وقتاً يكفى تكاثرهم إلى شعب عديد. وإن نضل يقيناً مع ذلك إذا افترضنا مع غالبية الباحثين أن جزءاً فقط من أولئك الذين صاروا فيما بعد الشعب اليهودي قد خضعوا لمصير العبودية في مصر، وبمعنى آخر فإن القبيلة العائدة من مصر انضمت فيما بعد في البلد الواقعة بين مصر وكنعان إلى القبائل الأخرى المتأصرة والتي كانت تقيم هناك لبعض الوقت. وهذا الاتحاد، الذي ولد منه شعب إسرائيل، عبر عن نفسه في اعتناق دين جديد، عام بالنسبة لكل القبائل، هو دين يهوا. وطبقاً لما يقوله ميير فإن ذلك حدث في قادش تحت نفوذ المدينيين. وبعد ذلك أحس الشعب بأنه قوى حتى يمكنه أن يقوم بغزو كنعان. ولايتلام مع مجرى الحوادث هذا أن تقع تلك الكارثة التي حلت بموسى وديانته في المنطقة شرقي الأردن - وإنما لا بد أنها وقعت في زمن يسبق الاتحاد بوقت طويل.

ولاشك أن عناصر كثيرة متنوعة للغاية أسهمت في تكوين الشعب اليهودي، ولكن أعظم الخلافات بين هذا الشعب قد اعتمدت حتماً على ما إذا كان شعب اليهود قد عاش فعلاً الاغتراب في مصر وما جرى بعده، أم لا؟ ومن وجهة النظر هذه قد نقول إن الأمة قد صنعها اتحاد عنصرين، وهو أمر يتوافق مع هذه الواقعة: وهي أنه بعد فترة قصيرة من الاتحاد السياسي، انفلق الاتحاد إلى جزئين - مملكة إسرائيل، ومملكة يهودا. والتاريخ يحب أمثال هذه التجديدات التي يستعيد فيها نفسه، والتي يفصم فيها من جديد عرى الاندماجات السابقة، وتتضح فيها من جديد الانقسامات التي كانت موجودة من قبل. ولعل أبرز مثل على ذلك - وهو مثل معروف جداً - هو حركة الإصلاح، عندما دفعت إلى الضوء من جديد، وبعد فترة تزيد على الألف عام، بالحدود بين جرمانيا التي كانت ضمن الدولة الرومانية، وبين الجزء الذي ظل دائماً مستقلاً. ومع الشعب اليهودي لايسعنا أن نتحقق من أن الوضع السابق للأمور قد بعث من جديد بحذافيره. ومعلوماتنا عن تلك العصور ليست

مؤكدة كلية.، بحيث يسعنا أن نفترض أن المملكة الشمالية قد استوعبت اليهود الذين كانوا يقيمون أصلاً فيها، بينما سكن المملكة الجنوبية اليهود العائدون من مصر؛ ولكن الانقسام اللاحق في هذه الحالة كذلك، لا يمكن فصله عن الاتحاد الذي حدث في الفترة الأولى. والمحتمل أن اليهود المصريين كانوا أقل عدداً من اليهود الآخرين، ولكنهم دللوا على أنهم كانوا على مستوى ثقافى أعلى، وكان لذلك تأثير أهم على التطور اللاحق للشعب، لأن اليهود المصريين استحضروا معهم تراثاً كان ينقص الآخرين.

وربما قد استجلبوا شيئاً آخر، شيئاً أكثر اتضاحاً من مجرد التراث، فمن بين الألفاظ الكبرى في عصور ما قبل التاريخ اليهودية، توجد الألفاظ المتعلقة بأسلاف اللاويين، حيث يقال إن أصلهم إحدى قبائل إسرائيل الإثنتى عشرة، قبيلة لاوى. ولكنه لم يحدث أن كانت لإحدى الروايات الجراء أن تعلن في أى مكان سكنت تلك القبيلة أصلاً، أو ما هو الجزء من أرض كنعان الذى غزوه قد خصص لها، فقد احتلوا الأماكن التى لها الأهمية الأكثر بالنسبة للكهنة، ومع ذلك كانوا متميزين عن الكهنة، فاللاوى ليس بالضرورة كاهناً، وليست اللاوية اسماً لطبقة. ويقدم اقتراحنا عن شخص موسى تفسيراً، فليس من المصدق أن إنساناً عظيماً مثل موسى المصرى كان من الممكن أن يقترب من شعب غريب عليه بدون أن تكون له بطانة. فلا بد أنه قد استجلب معه حاشيته من أتباعه المقربين وكتبته وخدمه. وهؤلاء كانوا اللاويين الأصليين. ويتمسك الرواية بأن موسى كان لاوياً، ويبدو أن ذلك تشويه ظاهر لواقع الأمور، فاللاويون كانوا شعب موسى، وهذه النتيجة يؤيدها ما ذكرته في مقال سابق : أنه في العصور اللاحقة نجد أسماء مصرية فقط بين اللاويين^(١). ومن الجائز أن نفترض أن عدداً لا بأس به من ذاك الشعب الموسوى قد أفلت من المصير الذى حاق به وبديانته، وتكاثروا في الأجيال التالية واختلطوا بالشعب الذى عاشوا بينه، ولكنهم ظلوا على لغاتهم وسيدهم، يجعلون ذكراه، ويحفظون تقاليد تعاليمه. وفي زمن الاتحاد مع أتباع يهوه شكلوا

١- يتوافق جدا هذا الافتراض مع مايقوله يهودا yahuda عن تأثير المصرى على الكتابات اليهودية المبكرة. أنظر أ. س . يهودا : Die Sprache des Pentateuch in ihren Beziehungen zum Agyptischen (١٩٢٩). (فرويد)

أقلية لها نفوذها، أعلى ثقافياً من الباقين.

وأقترح - وهو ليس إلا اقتراحاً حتى الآن - أنه بين سقوط موسى وتأسيس ديانة فى قادش ولد جيلان واختفيا، وأنه ربما انصرم كذلك قرن. ولست أتبين طريقى حتى يمكننى أن أستيقن مما إذا كان المصريون الجدد، كما أوتر أن أسمى أولئك الذين عادوا من مصر تمييزاً لهم عن اليهود الآخرين، قد التقوا بأقاربهم فى الدم بعد أن كان أولئك قد ارتضوا ديانة يهوا أو قبل أن يحدث ذلك. وربما كان القول الأخير هو الأكثر احتمالاً. وهو لا يحدث أى اختلاف بالنسبة للنتيجة النهائية، فإن ماحدث فى قادش هو التقاء بين الطرفين، والدور الذى لعبته فيه قبيلة موسى قابل للتخطئة.

وهنا يجوز لنا أن نعود إلى عادة الختان التى أمدتنا مراراً بخدمات هامة. ولقد صارت هذه العادة كذلك قانوناً من قوانين ديانة يهوه، وحيث أنها ترتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً، فإن الأخذ بها لابد أن يعنى إذعاناً لشعب موسى، وماكان لذاك الشعب - أو للويين الذين يتزعمونه - أن يطرحوا جانباً تلك العلامة التى تدل على تكريسهم. وكانوا يريدون أن ينقلوا الكثير من ديانتهم القديمة، وكثمن لذلك كانوا يرضون بالاعتراف بالمعبود الجديد وبكل ما كان يقوله الكهنة المدينيون عنه. ومن المحتمل أنهم حاولوا الحصول على المزيد من التنازلات. ولقد ذكرت أننا أن الطقوس اليهودية تفرض اقتصاداً معيناً فى استخدام اسم الله، وبدلاً من يهوه كان عليهم أن يقولوا أونواى Adonai. ومن المفرد أن نضمّن هذه الوصية فى مناقشتنا، مجرد فرض، وكما هو معروف فإن النهى عن النطق باسم الله هو من المحرمات البدائية، وليس من الواضح تماماً السبب بالضبط الذى يحدد به فى الوصايا اليهودية، وإنه لأمر محل نقاش أن يحدث هذا تحت تأثير دافع جديد ولاسبب يدعو إلى افتراض أن هذه الوصية طبقت بشكل حاسم، فلقد استخدمت كلمة يهوه فى تشكيل أسماء ذات مدلولات دينية - أى استخدمت فى تركيبات مثل يشوع وياهو ويوحنان. ومع ذلك فهناك شئ غريب فى هذا الاسم، فمن المعروف أن علم تفسير التوراة يُقر مصدرين للألفار الستة، ويسميان «ى» و«أ»، لأن أحدهما يستخدم اسم يهوا المقدس، والثانى يستخدم اسم إلهيم Elohim. والواقع أنه إلهيم وليس أونواى. ولربما جاز لنا هنا أن نردد ملحوظة أحد المؤلفين: «إن الأسماء المختلفة دليل واضح على آلهة مختلفة أصلاً»^(١).

ولقد سلّمنا بأن الأخذ بعادة الختان كدليل على أنه فى وقت تأسيس الدين الجديد فى

(١) Hugo Gressmann : Mose und seine Zeit (Göttingen, 1913) p. 54. - ١

قادش حدث التقاء، ونحن نعلم أن الالتقاء كان بين كل من «ى» و«أ»، والقستان تتفقان، ولذلك ينبغي أن نرجعهما إلى مصدر مشترك، إما أنه مصدر مكتوب أو رواية شفاهية. وكان الهدف المقصود هو إثبات عظمة وقوة الإله الجديد يهوه. وحيث أن شعب موسى كان يعلق مثل هذه الأهمية الكبيرة على تجربة خروجه من مصر، فكان لابد أن ينسب تحريره إلى يهوه، وكان لابد من تزويق هذا العمل بسمات تثبت العظمة المخيفة لهذا الإله البركاني، مثل عمود الدخان الذي تحول إلى عمود من نار في الليل، أو العاصفة التي قسمت الماء حتى أغرقت فيضانات الماء الراجعة المطاردين. ومن ثم اقترن الخروج بتأسيس الديانة الجديدة، وأنكرت الفترة الطويلة التي بينهما، وقيل إن تنزيل الوصايا العشر كذلك جرى ليس في قادش ولكن عند سفح الجبل المقدس وسط مظاهر انفجارات بركانية. وألحق هذا الوصف مع ذلك ضرراً بليغاً بذكرى موسى الإنسان، فلقد كان موسى وليس الإله البركاني، هو الذى حرر شعبه من مصر. ومن ثم كان لابد من تعويضه، ولقد عُوِّضَ بنقله إلى قادش أو إلى جبل حوريب سيناء، وبوضعه في مكان الكاهن المدينى. وسوف نناقش فيما بعد كيف أرضى هذا الحل ميلاً عاجلاً آخر ليقاوم، فعن طريقه تحقق نوع من التوازن، واستطاع يهوه أن يبسط سلطانه إلى مصر من جبله في ميدين، بنما نقل وجود ونشاط موسى إلى قادش والبلد الواقع شرقى الأردن. وكانت هذه هي الطريقة التي صار بها واحداً مع الشخص الذي كانت له فيما بعد ديانة، وهو زوج ابنة يثرون المدينى، الرجل الذى أعطى اسم موسى كذلك. ونحن لانعرف مع ذلك شيئاً شخصياً عن هذا الموسى الآخر - فموسى الأول، موسى المصرى، يحجبه تماماً، إلا احتمالاً فيما يبدو من دلالات تظهرها التناقضات الموجودة في التوراة في وصف موسى، فهو يوصف كثيراً بأنه متسيّد حامى الطبع، وعنيف، ومع ذلك يقال عنه أيضاً أنه كان أكثر الناس حلماً «ووداعة». ومن الواضح أن الصفات الأخيرة ماكان لها نفع لموسى المصرى الذى خطط لشعبه مثل تلك المشروعات العظيمة والصعبة، وربما كانت تخص الآخر، المدينى. وأظن أن لى مايبيرر فصل الشخصين عن بعضهما البعض، وتصور أن موسى المصرى لم يحدث أن كان في قادش أبداً، وأنه لم يسمع أبداً باسم يهوه، بينما لم يضع موسى المدينى قدماً في مصر، ولم يعرف شيئاً عن أتون. ولكى توحد بين الشعبين في شعب واحد، كان لزاماً على الرواية أو الأسطورة أن تحضر موسى المصرى إلى مدين، ورأينا أن أكثر من تفسير واحد قد أعطى لها .

إننى على استعداد تام لأن أسمع من جديد العتاب بأنى قد صفت بنائى المعاد للتاريخ المبكر لقبيلة إسرائيل بيقين غير لائق وليس له ما يبرره. وإن أحس أن هذا النقد قاس جدا طالما أنه يجد صدق فى حكمى أنا، وأعرف أنا نفسى أن هذا البناء له مواضعه الضعيفة، ولكن له كذلك مواضعه القوية. وعلى العموم فإن الحجج المؤيدة لاستمرار هذا العمل فى نفس الاتجاه تنتصر. ويحتوى سجل التوراة الذى أمامنا على شواهد تاريخية قيّمة - بل على شواهد لا تقدر لها قيمة، ولكنها شوهت بتأثيرات مفرضة، واستكملتها نتاجات التأليف الشعارى. وفى عملنا استطعنا من قبل أن نتنبأ بواحد من هذه النزعات المشوهة وسيهديننا هذا الاكتشاف فى طريقنا، فهو لمحة لكشف الغطاء عن النزعات المشوهة المعاملة. وإذا وجدنا أسباباً للإقرار بالتشويهات التى أنتجتها، فلسوف نستطيع أن ندفع إلى الضوء بالمزيد من المجرى الحقيقى للأحداث.

وانبدأ بأن نتبين مايقوله البحث النقدى للتوراة عن كيفية كتابة الأسفار الستة^(١) - كتب موسى الخمسة وكتاب يشوع - لأنها وحدها التى تهمننا هنا. ويعتبر أقدم المصادر المصدر المسمى «ى»، أو المصدر الذى يتناول يهوه والذى يظن أحدث الباحثين أنهم يتعرفون فى مؤلفه على الكاهن أبياتار Ebjatar^(٢) أحد المعاصرين للملك داود^(٣). وبعد ذلك بقليل، ولايعرف لِمَ كان ذلك القليل، يأتى المصدر المسمى الإيلوهيمى والذى ينتمى إلى المملكة الشمالية^(٤). وبعد دمار هذه المملكة سنة ٧٢٢ ق.م. ضم أحد الكهنة اليهود أجزاء من «ى»

١- انظر مقالة الإنجيل Bible فى الطبعة الحادية عشرة من Encyclopaedia Britannica (دائرة المعارف البريطانية لسنة ١٩١٠). (فرويد)

٢- سفر صموئيل الثانى الإصحاح الخامس عشر. وقد اختلف ابنا الملك داود، وهما أونيا وسليمان على من يخلفه، وانتصر أبياتار لأونيا على سليمان، وعندما مات داود وتولى سليمان الملك انتقم من أبياتار وطرده من الكهانة. (سفر الملوك الأول الإصحاح الثانى). (الحفنى)

٣- انظر: (1932) Auerbach : Wuste und Gelobtes Land (فرويد)

الملك داود بن إشعيا من سبط يهوذا، تولى الملك وهو بعد صبى ويعتبر من مؤسس مايسمى بمملكة يهوذا، وخلفه على الملك ابنه سليمان. (الحفنى)

٤- كان استروك سنة ١٧٥٣ أول من ميّز بين المصدر الذى ينتسب إلى يهوه والمصدر الذى ينتسب إلى إيلوهيم. (فرويد)

المملكة الشمالية: يقال إن الدولة اليهودية كانت ثلاث دول، مملكة فى الشمال عاصمتها سامريا، ومملكة يهوديا فى الجنوب، ومملكة الجليلى فى الوسط، وليس هناك من الآثار مايدل على ذلك سوى مايقوله التوراة اليهودى وهو من تدبج كهنة اليهود وخاصة عزرا الذى يسميه القرآن الكريم «عَزَّيْز» (الحفنى)

إلى أجزاء من «أ»، وأضاف إليهما إسهامات من عنده، وأطلق على مجموعته اسم «ى أ». وفي القرن السابع أضيف السفر الخامس «التثنائية»، وقيل إنه قد عثر عليه حديثاً بأكمله في المعبد. وفي الزمن الذي تلا تدمير المعبد، في سنة ٥٨٦ ق.م، خلال النفي وبعد العودة، وضع مايسى بالتشريع الكهنوتي وأعيدت كتابته، ورأى القرن الخامس عشر مراجعة محددة لمادة التوراة^(١)، ومنذ ذلك الوقت لم يتناول التغيير هذه المادة.

ومن المحتمل أن تاريخ الملك داود وتاريخ عصره كتبه أحد معاصريه. وهو تاريخ حقيقي جرت وقائعه قبل هيروdot «أبو التاريخ» بثمانمائة سنة. وسوف يتيسر فهم هذا التاريخ إذا تصورنا وجود تأثير مصرى في حدود الفرض الذى افترضناه. وكان هناك اقتراح^(٢) بأن الإسرائيليين الأوائل من كتبة موسى، كان لهم يد في اختراع أول أبجدية عبرية^(٣). وليس بوسعنا بالطبع أن نعرف إلى أى مدى تقوم الروايات عن العصور السابقة على المصادر المبكرة أو على الرواية الشفاهية، وأن نعرف مدى الفترة التى انقضت بين حادثة ما وبين تثبيتها بالكتابة. ومع ذلك فإن النص كما نجده اليوم يقص علينا مافيه الكفاية، عن تاريخه هو نفسه، وتركت قوتان متميزتان ومتعارضتان أثرهما عليه، فمن ناحية كان على تغييرات معينة أن تعمل عملها فيه، مزيفة النص طبقاً لميول مستترة، تقطع منه وتزيد

١- من المؤكد تاريخياً أن النموذج اليهودى تحدد نهائياً كنتيجة لإصلاحات عزرا ونحميا فى القرن الخامس قبل الميلاد، أى بعد النفي وخلال حكم ملوك فارس الذين كانوا أصدقاء لإسرائيل. وطبقاً لحسابنا فإن ٩٠٠ سنة تقريباً مرت منذ ظهور موسى. وعن طريق الإصلاحات أخذ الشعب التنظيمات التى تهدف إلى تقديس الشعب المختار مأخذ الجد، فطبق الانفصال عن القبائل الأخرى بالقوة بمنع الزواج المختلط، وأقر البناتايوخ (الأسفار الخمسة)، وهو التجميع الأصيل للشريعة. فى صورته المحددة، وتم إعادة كتابة مايسى باسم التشريع الكهنوتى. ويبدو يقيناً مع ذلك أن الإصلاح لم يأخذ بآية اتجاهات جديدة، ولكنه حقق ببساطة الاقتراحات السابقة ودعمها. (فرويد)

والتوراة هو كتاب اليهود ويتألف من ٢٩ سفرأ، والمعنى الحرفى للكلمة هو «التعليم» وينسب إلى عزرا كتابة التوراة عن طريق إعادة كتابة التراث. أما التلمود فهو كتاب اليهود الثانى، وإذا كان التوراة قد وضع بعد موسى بنحو ألف عام فالتلمود وضع بعد التوراة بعدة قرون. (الحفنى)

٢- انظر كتاب يهودا السابق ص ١٤٢.

٣- لأنهم وقد حُظر عليهم صنع الصور والتماثيل فقد كان ذلك دافعاً لهم إلى التخلّى عن الكتابة بصور اللغة الهيروغليفية واتخذوا علاماتهم الكتابية كشكل جديد من أشكال التعبير المقروء. (فرويد)

عليه حتى استحال إلى ضده، ومن ناحية أخرى سيطر عليه ودرع متسامح مشوق إلى أن يستبقى كل شيء، لايبالي ما إذا كانت التفاصيل تترايط مع بعضها أو أنها تلتفى بعضها البعض. وهكذا يمكن أن توجد فى كل مكان تقريباً محنوفات بصورة مدهشة، ومتكررات معوقة، ومتناقضات ظاهرة، وإشارات لأشياء لم يقصد توصيلها أبداً. وتشويه النص لا يختلف عن الجريمة. ولاتوجد صعوبة فى تنفيذ العمل، ولكن فى التخلص من الآثار. وكان بوسعنا أن نتمنى أن نعطى كلمة «تشويه» المعنى المزوج الذى لها الحق فيه، مع أنها لاتستخدم الآن فى هذا المعنى، وكان يجب أن تعنى، ليس فقط «تغيير المظهر»، ولكن كان يجب أن تعنى كذلك «التحريف»، و«الوضع فى مكان آخر»^(١). وهذا هو السبب فى أنه فى كثير جداً من التشويهاات فى النصوص يجوز لنا أن نعتمد على أننا سنجد المادة المكتوبة والمنكرة مخفية فى مكان ما، ولو فى شكل مغاير ومنتزع من ارتباطه الأصيلى. وكل ما هنالك أنه ليس من السهل دائماً التعرف عليها.

والميل المشوهة التى نريد أن نكشفها لآبد أنها أثرت على الروايات قبل أن تكتب. ولقد اكتشفنا إحداها، وربما كان أقواها جميعاً. وقلت أنه عندما عبّد الإله الجديد يهوه فى قادش كان لآبد من عمل شيء لتمجيده. والشئ الواقى أكثر أن نقول أنه كان يتعين إقامته أولاً وأن يوسع له مكان، وكان يجب أن تباد آثار الديانات السابقة. ويبدو أن هذا نُفذ بنجاح مع دين القبائل المستقرة، فلم يسمع عنها شيء من بعد، ولكن المهمة لم تكن سهلة مع القبائل العائدة، فلقد كانت مصممة على ألا يُسلب منها الخروج من مصر وموسى الإنسان وعادة الختان. وإنما لحقيقة أنهم كانوا فى مصر، ولكنهم غادروها مرة أخرى، ومن الآن فصاعداً لآبد من رفض كل أثر للنفوذ المصرى. وتمّ التخلص من موسى بأن نُقل إلى ميدين وقادش، وأدمج فى شخص واحد بالكاهن الذى أسس ديانة يهوه. وكان لآبد من استبقاء الختان، وهى أكثر العلامات دلالة على الرضا على الاعتماد على مصر، ولكن رغم كل الشواهد الموجودة، بذلت كافة الجهود الممكنة لفصل هذه العادة عن مصر. ولا يمكن تفسير الفقرة المحيرة فى سفر الخروج، المكتوبة فى أسلوب غير مفهوم تقريباً، وتقول إن

١- وشهد شاهد من أهلها، بل هو من أكابرهم، ففرويد هنا يقر بأن التوراة تناولها التشويه بالحذف وبالزيادة وبالنقل وبالتحريف كما يروى القرآن : من الذين هانوا يحرفون الكلم عن مواضعه «النساء»، وأيضاً «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما علقوه» (البقرة). (الحفنى)

اللَّهُ كان غاضباً على موسى لإهماله الختان، وأن زوجته المدينية أنقذت حياته بإجراء عملية ختان سريعة، إلا بأنها تناقض متعمد للحقيقة الكاشفة. وسنصادف عما قريب بدعة أخرى ابتدعوها بهدف إبطال نفقة صغيرة لها شهادتها المزعجة.

وليس فى الإمكان تماماً وصفها بأنها اتجاه جديد - إنها ليست استمرار المحاولة نفسها - عندما نعرث على محاولة إنكار أن يهوه كان إلهاً جديداً، إلهاً غريباً على اليهود، إنكاراً تماماً. ولهذا السبب نسجت أساطير الآباء أبراهام وإسحق ويعقوب. وتصر ديانة يهوه أن يهوه كان إله هؤلاء الآباء. هذا حق، ولكن على هذه الديانة نفسها أن تقر أيضاً بأن يهوه لم يعبده هؤلاء الآباء تحت هذا الاسم^(١).

ولاتحدثنا ديانة يهوه عن الاسم الآخر الذى كان يُعبد به، ولكنها تحينت الفرصة لتوجيه ضربة حاسمة إلى القول بأن عادة الختان أصلها مصرى، فقول إن يهوه قد طلب من أبراهام أن يُختن، وجعل يهوه الختان كعلامة على الميثاق المضروب بينه وبين نسل أبراهام. وهذه، على أى حال، فرية شديدة الحمق، لأنه لو شئنا أن نستخدم علامة نميز بها أحد الناس عن سائر الشعب، لاخترنا شيئاً لايمتلكه الآخرون - وهو بالتأكيد شئ ليس عند الملايين من الناس. والإسرائيلي الذى يجد نفسه فى مصر، سيجد أن عليه أن يقر بأن المصريين كلهم إخوته، لأن الميثاق الذى بينه وبين يهوه، هو نفسه الميثاق الذى يجمعه والمصريين كإخوة فى يهوه. وليس من الممكن أن يجهل الإسرائيليون الذين توفروا على تأليف التوراة أن المصريين كانوا يمارسون عادة الختان. وتقر ذلك الفقرة التى يوردها مبير من سفر يشوع إقراراً صريحاً، ومع ذلك كان لابد من إخفاء الحقيقة بأى ثمن.

ولايمكننا أن نتوقع من الأساطير الدينية أن تولى انتباهاً متشككاً إلى الارتباطات المنطقية، وإلا أصابت الكراهية إحساس الشعب عن حق إزاء تصرف إله يعقد ميثاقاً مع آبائه يتضمن تكليفات متبادلة، ثم يتجاهل شركاءه البشرى لقرون إلى أن يطرأ له فجأة أن يكشف عن نفسه مرة أخرى لنسلمهم. وأكثر من ذلك إثارة للدهشة المفهوم عن إله «يختار» فجأة شعباً من الشعوب، ويجعله «شعبه» ويقوم من نفسه إلهاً لهم. وأعتقد أن هذه هى الحالة الوحيدة فى تاريخ الديانات البشرية التى

١- إن القيود على استخدام الاسم الجديد لاتصبح أكثر فهماً، ولو أنها تصبح أكثر تعرضاً للريبة. (فرويد)

حدث فيها مثل ذلك. وفي الحالات الأخرى ينتمى الشعب وإلهه إلى بعضهما بلا انفصال، فهما واحد منذ البداية. وإنه لحقيقة، أن نسمع أحياناً عن شعب يأخذ فى عبادة إله جديد، ولكننا لم نسمع عن إله يختار شعباً جديداً. وربما نقترّب إلى فهم هذا الحدث الفريد عندما نفكر فى الارتباط بين موسى وبين الشعب اليهودى، فموسى هو الذى نزل إلى اليهود، وجعلهم شعبه، أى أنهم صاروا «شعبه المختار»^(١).

وكان هناك بالإضافة إلى ذلك هدف آخر لإدخال الآباء فى دين يهوه الجديد، فلقد عاشوا فى كنعان، وارتبط ذكرهم بأماكن معينة فى البلاد. وربما كانوا هم أنفسهم أبطال كنعانيين أو معبودات محلية اتخذها الإسرائيليون المهاجرون معبودات لهم فى تاريخهم

١- كان يهوا إله براكين بلا جدال. ولم يكن هناك سبب يدعو سكان مصر إلى عبادته. ولست بالتاكيد أول من بيدهنى التشابه بين اسم يهوه أو جاهفيه أو جيهوفا وبين جذر اسم إله آخر : جويتر وجوفيس (Jahve, Jupiter, Jovis)). والاسم التركيبى يوحنان، المكون جزئياً من الكلمة العبرية يهوه، وله معنى يشابه إلى حد ما اسم جودفرى والاسم القرطاجى المساوى له هانيبال، صار أحد الأسماء الأكثر شيوعاً فى المسيحية الأوروبية فى أشكال جوهان وجون وجين وجوان. وعندما يعيد الإيطاليون إنتاج الاسم فى شكل جيوفانى ثم يسمون أحد أيام الأسبوع جيوفيدى يدفعون مرة أخرى إلى الضوء تشابهاً ربما لايعنى شيئاً أو ربما كان يعنى الكثير جداً. وتتفتح إمكانات بعيدة المدى، ولو أنها غير آمنة بعض الشيء، تتفتح هنا، فلقد كانت البلاد حول الحوض الشرقى للبحر الأبيض، فى تلك القرون المظلمة التى لم يكد البحث التاريخى يبدأ فى تكشفها، كما يبدو مسرحاً لانفجارات بركانية متعددة وصنيفة، كان لابد أن تترك أثراً عميقاً على السكان. ويفترض إيفانز Evans (مؤرخ) أن الدمار الأخير الذى حاق بقصر الملك مينوس فى كنوسوس Knossos كان كذلك نتيجة زلزال. وكانت الإلهة الأم العظيمة حينئذ تعبد فى كرين، كما كانت تعبد احتمالاً فى كل مكان من العالم الإيجى. وربما أسهمت الملاحظة التى تقول أنها لم تكن بوسمها أن تحمى بيتها ضد هجوم قوة أقوى، فى تخليها عن مكانها إله ذكر، ومن ثم كان لإله البراكين الحق الأول فى شغل مكانها. وما يزال الإله زيوس يحمل اسم «الذى يهز الأرض». ولايكاد يوجد شك فى أنه فى تلك الأزمان الغامضة حلّت الإلهة المذكورة محل الإلهة المؤنثة (وربما كانت فى الأصل من أبنائها). وإن مصير بالاس أثينا Pallas Athene لمؤثر بنوع خاص وكان بلاشك الشكل المحلى للإلهة الأم، والتى اختُزت خلال الثورة الدينية وصارت مجرد ابنة، وانتزعت منها أمها، وحيل بينها للأبد وبين الأمومة بمقتضى التحريم الذى أحيطت به العذرية. (فرويد)

ويقصد فرويد من شعبه المختار هنا أن موسى وإله كليهما لم يكونا من شعب اليهود، وأن موسى وإله كليهما كان غريباً على اليهود، حيث أن موسى قد ترك شعبه المصرى وبشّر اليهود بدينه الجديد، فلقد صار اليهود شعبه المختار أى الذى اختاره بديلاً عن شعبه المصرى. (الحفى)

المبكر. وبإحيائها يقدمون الدليل، كما نرى، على أنهم ولدوا وتربوا في
البلد، وأنهم يرفضون الكراهية التي تلتصق بالغازي الأجنبي. وكان ذلك تحولاً ذكياً : لم
يعطهم يهوه سوى ما كان لأسلافهم في يوم من الأيام.

وفي الإسهامات اللاحقة إلى نص التوراة واجه الميل إلى تجنب ذكر قادش نجاحاً،
وصار مسرح تأسيس الديانة الجديدة هو جبل حوريب سيناء المقدس بشكل قاطع؛
ولا يتضح الدافع، وربما لم يكونوا يريدون أن يُذكرُوا بنفوذ ميدين، ولكن كل التشويهِات
اللاحقة، وخاصة التشويهِات التي لحقت بالتشريع الكهنوتي، تخدم غرضاً آخر، فلم تعد
هناك أية حاجة لتغيير مواصفات الأحداث التي جرت في الزمان البعيد نحو اتجاه معين،
فقد حدث ذلك منذ زمن بعيد. ومن ناحية أخرى، بُذلت محاولة لإرجاع بعض قوانين
وشرائع الحاضر إلى عصر مبكر، وإقامتها كقاعدة على القانون الموسوي، تستمد منها
دعواها في القدسية والقوة الملزمة. ومهما زُينت صورة العصور القديمة بهذه الطريقة، فإن
الإجراء لا ينقصه تبرير سيكولوجي معين. لقد عكس حقيقة أنه خلال الكثير من القرون -
انقضت نحو ثمانمئة سنة بين الخروج وبين عملية تثبيت نص التوراة التي قام بها عزرا
ونحميا - سارت ديانة يهوه في خط تطوري رجعي تُوجَّ باندماج (وربما كان ذلك لدرجة
التماثل الفعلي) مع الديانة الأصلية لموسى.

وهذه هي النتيجة الجوهرية : المحتوى المصيري لتاريخ اليهود الديني.

※ ※ ※

- ٧ -

بين كل أحداث التاريخ اليهودي القديم الذي آل الشعراء والكهنة والمؤرخون على
أنفسهم تصويره فيما تلا ذلك من عصور، كانت هناك حادثة بارزة دعت إلى طمسها
أفضل النوافع الإنسانية وأكثرها وضوحاً. هذه الحادثة هي مقتل موسى الزعيم
والمحرر العظيم، والذي أحس بها «سيلين» من كلام الأنبياء. ولا يمكن تسمية حدس
سيلين بالخيالي، فهو محتمل جداً. فموسى الذي تدرب في مدرسة أخناتون
استخدم نفس الطرق مثل الملك. لقد كان يعطى الأوامر ويفرض ديانته
على الشعب^(١)، وربما كانت ديانة موسى أكثر تعصباً من ديانة سيده، ولم تكن به حاجة

١- في تلك العصور ما كان من المحتمل تقريباً أن يكون هناك أي شكل آخر من أشكال التأثير. (فرويد)

لاستبقاء أى ارتباط بديانة إله الشمس طالما أن مدرسة أون لن تكون لها أهمية لشعبه الغريب. وواجه موسى المصير الذى واجه أخناتون، المصير الذى ينتظر كل الطغاة المستنيرين. ولم يكن بوسع شعب موسى اليهودى أن يتحمل كذلك مثل هذه الديانة الروحية، وأن يجد فيما تقدمه إشباعاً لحاجاته، كما حدث للمصريين أثناء الأسرة الثامنة عشرة. وفى الحالتين حدث نفس الشئ: ثار أولئك الذين أحسوا أنهم مايزالون تحت الوصاية، أو الذين جرُّوا، وألقوا عنهم عبء ديانة فُرِضت عليهم. ولكن بينما انتظر المصريون الوديعون حتى رفع عنهم القدر شخص فرعون المقدس، أخذ الساميون الهمج قدرهم فى أيديهم وتخلصوا من طاغيتهم^(١).

وليس بوسعنا كذلك أن نصر على القول بأن نص التوراة الذى حُفظ لنا لايعدنا لنهاية كتلك التى حدثت لموسى. وتصف رواية «التيه فى البرية» - التى ربما جرت فى زمن حكم موسى - سلسلة من التمردات الخطيرة ضد سلطته، التى أخدمت مع معاقبة المتمردين عقاباً وحشياً بأمر يهوه. ومن السهل تخيل أن إحدى تلك التمردات انتهت إلى خاتمة أخرى خلاف مايبورده النص. ويذكر فى النص أيضاً تنكر الشعب للديانة الجديدة، ولو أنه يذكر كمجرد حادث. ويقصد به حكاية العجل الذهبى، حيث تحول خرْق ألواح الشريعة بشطارة ونُسب إلى موسى نفسه، وردُّ إلى سخطه الغاضب، بحيث صار هذا الخرق نفسه يؤوَّل تأويلاً رمزياً كاعتداء من موسى على الشريعة.

وجاء وقت عندما أسف الشعب على اغتيال موسى وحاولوا نسيانه. وحدث ذلك بالتأكيد فى وقت التجمع بقادش. وعلى ذلك فلو قرب الزمن الذى وقع فيه الخروج من زمن تأسيس ديانتهم فى الواحة، وسمحوا لموسى الآخر بدلاً من موسى الذى أسس الديانة، بالمساعدة فى تأسيسها، حينئذ لايتحقق فقط الإشباع لمزاعم شعب موسى، ولكن يتحقق كذلك بنجاح إخفاء الواقعة المؤلمة لإزاحته بطريقة عنيفة. والواقع أن من غير المحتمل غالباً أن موسى كان من الممكن أن يشارك فى الأحداث التى جرت فى قادش حتى ولو لم تُختصر حياته.

وهنا ينبغى أن نكشف عن تتابع تلك الأحداث، فلقد وُضع الخروج من مصر فى الزمن

١- من الواضح حقاً أننا ماسمعنا خلال آلاف السنين التى استغرقها التاريخ المصرى (القديم) عن انقلابات عنيفة أو اغتيالات للفراغة. والمقارنة بالتاريخ الأشورى مثلاً ينبغى أن تزيد دهشتنا. وربما كان السبب طبعاً أن التسجيل التاريخى للمصريين خدم الأغراض الرسمية وحدهما لاغير. (فرويد)

الذى تلا زوال الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٢٥٠ ق.م). وربما حدث حينئذ أو بعد ذلك بقليل، لأن المؤرخين المصريين أدرجوا السنوات التالية باعتبارها سنوات عمّتها الفوضى فى حكم حارمحب، الملك الذى أنهاها وحكم حتى سنة ١٢١٥ ق.م. والمساعدة الثانية لتحديد التاريخ - وهى الوحيدة - يقدمها لوح ميرنبتاح (١٢٢٥ - ١٢١٥ ق.م) الذى يمجّد الانتصار على إسيراءال (إسرائيل) وتدمير محاصيلهم. ولسوء الحظ فإن أمر هذا اللوح مشكوك فيه، ويؤخذ كدليل على أن القبائل الإسرائيلية كانت قد استقرت فى ذلك الوقت فى كنعان^(١). ويستخلص مبير بحق من هذا اللوح^(٢) أن ميرنبتاح لا يمكن أن يكون هو فرعون الخروج كما كان يُفترض من قبل. وينبغى أن يكون الخروج قد حدث فى فترة أسبق، ويبدو لى سؤال «من كان فرعون فى وقت حدوث الخروج؟» سؤالاً فارغاً، فلم يكن هناك فرعون فى ذلك الوقت، لأن الخروج حدث فى الفترة التى تخلت حكمين، ولكن لوح ميرنبتاح لا يلقى بأى ضوء على التاريخ المحتمل للاندماج وقبول الديانة الجديدة فى قادش. وكل مانستطيع قوله فى يقين هو أنهما وقعا فى زمن معين بين سنة ١٣٥٠ وسنة ١٢١٥ ق.م. وخلال ذلك القرن فلنفرض أن الخروج كان قريباً جداً من التاريخ الأول وأن أحداث قادش لم تكن بعيدة عن التاريخ الثانى؛ ونفضل أن نستبقى الجزء الأكبر من الفترة للمرحلة التى تخلت الحدثين. ويلزم وقت طويل نسبياً لتبرد عواطف القبائل العائدة بعد مقتل موسى، ولكى يقوى نفوذ شعب موسى وهم اللاويون، كما يفرض ذلك سلفاً الالتقاء فى قادش. وقد يكفى انقضاء جيلين، أى ستين سنة، ولكنه بالتقريب فقط. والتاريخ المستخلص من لوح ميرنبتاح يقع فى وقت مبكر جداً، ولما كنا نعرف ذلك من فرضنا، فإن افتراضاً واحداً يقوم على افتراض آخر، وهو أننا مضطرون إلى الاعتراف بأن هذه المناقشة تفصح عن نقطة ضعيفة فى البناء. ولسوء الحظ فإن كل شئ مرتبط باستقرار الشعب اليهودى فى كنعان غامض ومشوش بدرجة عالية؛ وبالطبع قد نستخدم وسيلة افتراض أن الاسم فى لوح إسرائيل

١- مبير المرجع السابق ص ٢٢٢. (فرويد)

٢- يقول اللوح: «والأمراء منطرحون على الأرض يصيحون الرحمة، ولايرفع واحد رأسه من أهالى الأقواس التسعة. الخراب للحنو. وبلاد خيتا قد أسكتت، ونهبت كنعان وأصابها كل شر، وسيقت عسقلان، وهجم على جزر، وصارت ينعم (كبلد) لم يكن له وجود، وإسرائيل خربت. وزالت بئرتها، وأصبحت فلسطين أرملة لمصر، وجميع الأراضى أصبحت هادئة كلها، وكل من كان غير مستقر أصبح مرتبطاً بميرنبتاح» (جون ويلسون: الحضارة المصرية ترجمة الدكتور أحمد فخرى). (الحفى)

لايشير إلى القبائل التي نحاول تتبع مصيرها، والتي توحدت فيما بعد في شعب إسرائيل. فضلاً عن أن اسم العابيرو Habiru (Hebrews عبرانيون) منذ عصر العمارنة انتقل كذلك إلى هذا الشعب.

وعندما كان يحدث أن قبائل مختلفة تتوحد في أمة بتقبل نفس الديانة، فمن الجائز جداً أن لا يكون الحدث على قدر عظيم من الأهمية بالنسبة لتاريخ العالم، وكان من الممكن أن يكتسح سبيل الأحداث الديانة الجديدة، وكان يهوه قد اتخذ مكانه في ركب الآلهة القديمة التي صورها فلوبيير^(١)، وكان قد «فقد» شعبه بجميع قبائله الاثنتي عشرة، وليس فقط العشر قبائل التي ظل الأنجلو سكسون يبحثون عنها طوال تلك المدة. وربما لم يكن الإله يهوه كائناتاً عظيماً بأي حال من الأحوال. فلقد كان إلهاً فظاً، ضيق العقل، محلياً، غنياً ومتعطشاً للدماء، وكان قد وعد أتباعه أن يعطيهم «أرضاً تفيض لبناً وعسلاً»، وشجعهم على أن يخلصوا البلد من سكانه الحاليين «بحد السيف». ومن المدهش حقاً أنه رغم كل هذه المراجعات لنص التوراة فقد سُمح للكثير أن يبقى، وبه نتعرف على طبيعة هذا الإله الأصلية. وليس من المؤكد أن ديانته كانت ديانة توحيدية حقيقية، وأنها أنكرت الألوهية للمعبودات الأخرى. وربما كان يكفي أن الإله الذي تقول به هذه الديانة كان أكثر قوة من كل الآلهة الأجنبية. وعندما اتخذ تتابع الأحداث طريقاً آخر تماماً عما كانت مثل هذه البدايات تجعلنا نتوقع، فلا يمكن أن يكون هناك إلا سبب واحد لذلك. ولقد أعطى موسى المصرى لجزء واحد من الشعب المصرى تصوراً آخر أكثر روحية للإله، إله يحتوى كل العالم، إله هو كل الحب كما هو كل القوة، يبغض كل الطقوس والسحر، ويضع حياة ملوئها الحق والعدل كهدف أسمى للإنسانية. ورغم أن معلوماتنا ضئيلة عن الجانب الأخلاقي لديانة أتون، فإنه لأمر له دلالة أن أخصائون وصف نفسه في نقوشه باعتباره «يعيش على الماعت» (الحق والعدل)^(٢) وعلى المدى الطويل، لم يكن يهم أن الشعب، ربما بعد زمن قصير

١- جوستاف فلوبيير الكاتب الفرنسى، ولد في روين (١٨٢١ - ١٨٨٠)، وهو مؤلف الرواية الشهيرة «مدام بوفارى» (١٨٥٧)، و«سالاميو» (١٨٨١)، وكان يهتم بالأسلوب كثيراً، كما كان يريد أن يقدم صورة للواقع ومع ذلك يضمناها سمات خيالية. (الطغنى)

٢- تؤكد أناشيده ليس فقط عالمية ووحداية الإله، بل وعنايته المحبة لكل المخلوقات، وهى تدعو المؤمنين إلى اجتلاء الطبيعة وما فيها من جمال. «بريستيد : فجر الضمير». (فرويد)

جداً، نبذ تعاليم موسى وأزاح الرجل نفسه. ولكن التراث نفسه بقي ووصل تأثيره - ولو أنه ببطء، وفي خلال قرون - إلى الهدف الذي استُتكر على موسى نفسه، وحاز الإله يهوه شرفاً لم يكن يستحقه، ابتداءً من قادش فما بعدها، عندما أضيف التحرير الذي قام به موسى لشعبه إلى حساب يهوه نفسه، ولكن كان عليه أن يدفع ثمناً غالباً لهذا الاغتصاب، فظل الإله الذي احتل مكانه صار أكبر منه، وفي نهاية التطور التاريخي ارتفع أعلى من كيانه كيان إله موسى المنسى. وليس بوسع أحد أن يشك أن فكرة هذا الإله وحدها هي التي مكّنت شعب إسرائيل من أن يتغلب على كل مصاعبه وأن يعيش حتى وقتنا.

ولم يعد في الإمكان تحديد الدور الذي لعبه اللاويون في الانتصار النهائي لإله موسى على يهوه. وعندما تحقق الالتقاء في قادش رفعوا صوتهم مؤيدين موسى، فقد كانت ذاكرتهم ماتزال خضراء بسيدهم الذي كانوا هم أتباعه ومواطنيه. وخلال القرون منذ ذلك الوقت صار اللاويون واحداً مع الشعب أو مع كهنته، وصار العمل الأساسي للكهنة هو تطوير الطقوس والإشراف عليها، بالإضافة إلى العناية بالنصوص المقدسة ومراجعتها لتوافق أغراضهم. ولكن ألم تكن كل هذه التضحية والطقوس في أعماقها مجرد سحر، وسحر أسود، من الطراز الذي أدانه المذهب القديم لموسى إداة غير مشروطة؟ وقام من وسط الشعب تتابع لاينتهى من الرجال، لاينحدرون بالضرورة من شعب موسى، ولكنهم كانوا مأخوذين بالتراث العظيم القوي، الذي نما تدريجياً في الظلام. وكان أولئك الرجال، الأنبياء، هم الذين ثابروا على التبشير بمذهب موسى القديم: إن المعبود يزدري التضحية والطقوس، ولا يريد إلا الإيمان وحياة ملؤها الحقيقة والعدل (ماعت) - وحققت جهود الأنبياء نجاحاً ثابتاً، وصارت المذاهب التي أعادوا بها إقامة العقيدة المضمون الدائم للديانة اليهودية. وإنه لشرف فيه الكفاية للشعب اليهودي أنه أبقى حياً تراثاً كهذا وأنتج رجالاً أعطوه أصواتهم، حتى ولو كان الدافع قد أتى أول الأمر من خارج، من عظيم أجنبي^(١).

وهذا الوصف للأحداث كان من الممكن أن يتركني بشعور من الشك لو لم يكن بوسعي أن أشير إلى باحثين خبواء آخرين يرون أهمية موسى لتاريخ الديانة اليهودية في نفس الضوء ولو أنهم لايقرون أصله المصري^(٢). ويقول سيلين مثلاً^(٣)، «ومن ثم علينا أن نصور

١- وواضح هنا تباهى فرويد باليهودية ويعدّه عن الموضوعية في اعتقاده بأن هناك شعباً خالصاً هو الشعب اليهودي وحكمه على التراث بأنه عظيم وبيانه أنتج عظماء. (الحقنى)

٢- واضح هنا رغم مايسوقه فرويد من أسئلة تشير الشك في أصل موسى عليه السلام أن هناك آخرين عرضت لهم نفس الأسئلة إلى نفس نهايات، وهي نهايات كما رأينا متمسفة لأنه يتعسفها لتخدم غرضه وليست براهين علمية لحقائق موضوعية. (الحقنى)

٣- سيلين. المرجع السابق ص ٥٢.

الديانة الحقيقية لموسى والعقيدة التي أعلنها عن إله واحد أخلاقى باعتبارها من الآن فصاعداً، كأمر طبيعي، منحازة إلى دائرة صغيرة داخل الشعب. وليس بوسعنا أن نتوقع أن نجد ما بعدها منذ البداية في المذهب الرسمي، في ديانة الكهنة، في العقيدة العامة للشعب. وكل ما بوسعنا أن نتوقعه هو، أنه هنا وهناك، تطير شرارة من النار الروحية التي أوقدها، وأن أفكاره لم تمت، ولكنها أثرت في هدوء على المعتقدات والعادات، حتى تندفع مرة أخرى، إن أجلاً أو عاجلاً، تحت تأثير حوادث خاصة، أو من خلال شخصية ما غارقة بوجه خاص في هذه العقيدة، شخصية أقوى، وتحرز السيطرة على الجماهير العريضة من الشعب. ومن هذه الزاوية ينبغي أن ننظر إلى التاريخ الديني المبكر للإسرائيليين القدامى. ولو حاولنا أن نعيد بناء الديانة الموسوية على الطراز الذي وضع في الوثائق التاريخية التي تصف ديانة الخمسة قرون الأولى في كتان، لوقعنا في أسوأ الأخطاء المنهجية». ويعبر فولز^(١) عن نفسه بوضوح أكثر ويقول «إن عمل موسى المطلق في السماء كان يُفهم بصعوبة في أول الأمر، وينفذ بضعف، حتى تخلل عبر القرون أكثر فأكثر في روح الشعب، ووجد أخيراً أرواحاً من طرازه في الأنبياء العظام الذين واصلوا عمل المؤسس الذي كان وحده».

وبهذا أصل إلى نهاية، فقد كان غرضي الوحيد أن أطابق صورة موسى المصري داخل إطار التاريخ اليهودي، وربما أستطيع الآن أن أعبر عن خاتمتي بأقصر صيغة : إلى الثنائية المعروفة لذلك التاريخ - شعبان اثنان يندمجان مع بعضهما ليكونا أمة واحدة، مملكتان اثنتان تنقسم إليهما هذه الأمة، اسمان اثنان للمعبود في مصدر التوراة - إلى هؤلاء نضيف اثنين جديدين : تأسيس ديانتين اثنتين جديدتين، الأولى تُنحىها الثانية، ومع ذلك تعاود الأولى الظهور منتصرة؛ ونُضيف كذلك مؤسسين دينيين اثنين، يُسميان بنفس الاسم، اسم موسى، وعلينا أن نفصل بين شخصيتيهما. وكل هذه الثنائيات نتائج ضرورية للنتيجة الأولى : أن قسماً من الشعب مرّ بما يمكن أن يسمى تسمية صحيحة تجربة أنوية Traumatic experience، أعنف الآخر منها. ولا يزال هناك الكثير لمناقشته ولشرحه ولتأكيد، فعندئذ فقط يمكن أن نضمن اهتماماً أكبر بدراستنا التاريخية المحضة : فما الذي تتكون منه بالضبط الطبيعة الباطنة للتراث، وما الذي تقوم

Paul Volz : Mose (Tubingen, 1907) p. 64 - ١

عليه قوته الخاصة، وكيفية استحالة إنكار الأثر الشخصي لأفراد الرجال العظام على تاريخ العالم، وأى تجديد نرتكبه ضد عظمة الحياة الإنسانية بتعدد أشكالها إذا سلّمنا بأن دوافعها الوحيدة هي الدوافع التي تعلّوها الحاجات المادية، ومن أى المصادر تستمد بعض الأفكار، وخاصة الأفكار الدينية، القوة التي تُخضع بها الأفراد والشعوب - ودراسة كل ذلك في الحالة الخاصة للتاريخ اليهودي عمل مُفر. ومثل هذا الاستمرار في مقالى سيرتبط بنتائج وضعتها منذ خمس وعشرين سنة في بحثى (الطوطم والمحرم - Totem and Taboo)، ولكنى لأثق في قواى أكثر من ذلك إلا بمشقة.

❖ ❖ ❖